سليمان العيسى

مُدُن وأسفار

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

مُدُن.. وأسْفار

١

أَحْلُمُ بالسَّفَرْ
خَلْفَ الغيومِ، والنُّجومِ، والقَمرْ
خَلْفَ رَذاذِ الموجِ والمِجْذافْ
وراءَ هذا الصَّخْرِ والهجيرِ والجَفافْ
إلى بلادٍ يَغْزِلُ النَاسُ بها المَطَرْ
مَعاطِفاً لمن يُحِبُّونَ..
يُغَنُّونَ إلى السَّحَرْ
ويَشْرَبون الليلَ، والنبيذَ، والوَتَرْ
ويَرْقُصونَ أَيْنما شاؤوا..
يُغَنُّونَ إلى السَّحَرْ
يا شاعري.. أَحْلُمُ بالسَّفَرْ

* *

كانت حكمتنا الدائمة أنا وهي:
السفر ثقافة..
السفر متعة..
السفر تجديد..
وأشهد أني سافرتُ كثيراً..
وطوَّفْتُ في العديد من أرجاء هذا العالم.
ولكنَّ أمتع أسفاري وأجملها كانت تلك التي نكون فيها معاً.. أنا وهي.
سأختار بعض الذكريات، وأضيء بعض «البُقَع»..
فلست ممن يُحبون أن يحكوا كل شيء..
وأن يسجِّلوا كل شيء.
وليست تفصيلات حياتنا هامةً دائماً.

٢

فندق بكين. ٢٧ آب ١٩٥٧

استسلمتُ لضوء النجوم، والسكون الذي يلفُّ كل شيء حولي، وجلست على شرفة غرفتي في الفندق الكبير، أتأمل هذا العالم الصامتَ العميق، في عاصمة المليار إنسان، - زادوا الآن كثيراً على المليار- .

بعد نهار حافل أمضيناه في الطَّواف والزيارات في بكين وضواحيها، كنا وفداً من

سورية يتألف من أربعة أشخاص، أنا واحد منهم، دعتنا الصين الشعبية فيمن دعت من وفود القارات الخمس الذين تجاوزوا المئة لزيارتها، ولم يكن أيٌّ من هذه الوفود التي تجاوزت المئة يربو عدده على أربعة أو خمسة مثلنا.

منذ أيام كنا جميعاً في موسكو.

شهدنا جميعاً واحداً من أضخم المهرجانات الدولية التي درج الاتحاد السوفياتي آنذاك على إقامتها بين حين وآخر ـ وهو في أوج نشاطه وقوته ـ يُعزِّز بها الصداقة والسلم في رأيه بين الشعوب.

وكانت العاصمتان موسكو وبكين يومئذٍ نغماً واحداً تعزفه «كمنجتان» هائلتان، كانتا في ذروة الوفاق والعناق، فلا غرابة أن نُدعى ـ نحن الوفود المئة ـ إلى الصين، يختاروننا من بين الحشود الضخمة التي أَمَّتِ المهرجان، ويحملوننا في قطار خاص يجتاز بنا المسافة بين العاصمتين في عشرة أيام كاملة.

سيبيريا.. هذه السهوب التي لا تنتهي..

قطعتُها كلها في عَرَبة قطار.. من موسكو إلى بكين في عشرة أيام كاملة.

رحلة رائعة تتاحُ للمرء مرةً واحدة في حياته، وما أظنه يرغبُ في أَن تُعاد.

أعود إلى شرفة غرفتي.. في فندق بكين.

أتناول ورقة صغيرة وأهمُّ بكتابة قصيدة من وحي هذا الصمت السحري الذي يغمرني:

اللّيلُ.. أعماقٌ تُناديني، وصمتٌ يَحْلُمُ

وشُرْفةٌ يَلُفّني فيها سكونٌ مُلْهَمُ

وخُطَواتٌ في الطريقِ حُلْوةٌ، تُتَمتِمُ

صمتٌ، كأعماق الحضاراتِ، وشيءٌ

يذوبُ سحراً في دمي، قصيدةٌ لاَ

يا ليلُ، أنْدى لُغَةٍ أنتَ هنا، وأرْخَمُ

بكين.. كونٌ حالمٌ وشاعرٌ مُستسلِمُ(١)

أطوي الورقة واستعرضُ في الذاكرة أحداث النهار الذي مرَّ.

زيارةُ جامعة بكين..

بركةُ الماء الواسعة التي تكاد تشغل نصف حديقة الجامعة، تغطيها أزهارُ النيلوفر التي تطفو على سطح الماء من كل لون.. أجملُ ما مرَّ بي في هذا النهار.

كنت أتأمل المشهد وأنا أُردد أبياتَ ابْنِ زيدون التي سكب فيها حنينه إلى ولاَّدة، وهو يطوف في حدائق (الزهراء) بقرطبة، ويعرِّج على النيلوفر الذي يداعبه النسيم:

---

(١) قصيدة: الليل في بكين. الأعمال الشعرية، المجلد الأول، ص ٤١٢.

إنِّــي ذكرتُــكِ بــالزهراءِ مشــتاقا

والأفقُ طَلْقٌ ووجهُ الأرضِ قد راقا

وللنســيمِ اعــتلالٌ فــي أصــائلهِ

كأنَّمــا رقَّ لــي فاعْتَــلَّ إشــفاقا

سَــرَى، يُنافِحُــهُ نَيْلَــوفَرٌ عَبِــقٌ

وَسْــنانُ، نَبَّــه منــه الصــبحُ أَحْــداقا

زيارة قصر الإمبراطور الشتوي الذي يتوسَّطُ المدينة العريقة.

والأجملُ منها والأعْلَقُ بالذاكرة وبالخيال ذلك الزورق الصغير الجميل الذي انساب بنا في بحيرةٍ على أطراف المدينة التاريخية، وحَمَلنا على جناحَيْ حُلم إلى قصر الإمبراطور الصيفي، المعلَّق كعنقودٍ من النجوم على هضبة غير عالية، تُزَنِّرها البحيرةُ الوادعةُ الشاعرة من كل الجهات.

سأبتاع صورةً للقصر، منقوشةً على قطعة من الحرير، وأحملها معي إلى بلدي، أُزيِّن بها جدار مكتبي في البيت.

«عنقود النجوم» جديرٌ بأن يكونَ «زينةً» على جدار.

تقطع عليَّ هذه التداعياتِ نَقَراتٌ على باب غرفتي..

يدخلُ مرافقُنا الصينيُّ الشابُّ، يُحَيِّي بأدبٍ جمٍّ ويُخبرني أَنَّ غَداءَنا ظُهر غد سيكونُ على جدار سورِ الصينِ العظيم.

سورُ الصين.. أَحد عجائب الدنيا السبع..

سنكون على كتفِه غداً.. نتأمَّلُ هذه «الأُعجوبةَ» التاريخية التي طالما قرأنا وسمعنا عنها منذ الطفولة. يا لها من رحلةٍ ممتعةٍ يا نهارَ غدٍ!

من باحة الفندق تحملنا سيارة باص غير كبيرة، وتنطلق بنا في الثامنة صباحاً باتجاه الشمال.

السور العظيم غير بعيدٍ عن العاصمة، لم أكن أتوقع هذا..

ساعتان أو أقل - فيما أذكر - تتسلق بنا السيارة الجبال المجاورة، وها نحن أولاء أمام السور الذي وقف يوماً على حدود الإمبراطورية على امتداد المئاتِ من الأميال يحميها كما قالوا من هجمات المعتدين، وغزو الطامعين.

على كتف السور وقفتُ أتأمَّلُ «الثعبان الحجري» وهو يتلوَّى بين الجبال حتى يغيبَ عن البصر في أعماق المجهول.

يكلُّ النظر وأنت تلاحقُ «الثعبانَ» الهائل، فتترك لخيالك أن يشرد معه، وتعود إلى مكانكَ.. على كتفِ السور.

لم أُصْغِ كثيراً - لابد أن أعترف - إلى الشرح المفصَّل الذي كان مرافقنا الصيني

الوديع يقدِّمه بين أيدينا عن تاريخ السور، كنتُ ضائعاً في تاريخ آخر، في الحكايات والأساطير التي كنت أسمعها في طفولتي عن هذه «العجيبة» من عجائب الدنيا السبع. وها أنذا أتناول «شطيرة الغداء» على حافَتِهِ الزاخرة بالأسرار والحكايات.

في صباح اليوم التالي كنا في طريقنا إلى شانغهاي..

وفود صغيرة من القارات الخمس يُقِلُّها قطار صيني بطيء..

يمتلئ حكمةً ورصانةً كأصحابه، ولا يكترث بالزمن.

أروع ما في هذا الطريق كان «النهر الأصفر».. حين وجدتُ نفسي أنا والقطار معلَّقين فوق مياه النهر الجبار، نعبره في خشية ورهبةٍ، على جسر من السُّفن عُقِدَ بعضُها ببعض - لا أدري كيف؟

عشرون.. ثلاثون من الدقائق تمر.. والنهر الجبار يحملنا على متنه الزاخر بالموج والزَّبَد كما يحمل التِّنين الهائل على ظهره رفاً من العصافير.

هذه هي شانغهاي..

ما أكاد أدخلها حتى أُحِسُّ ضوضاء المدن الكبرى وصَخَبَها..

هذه المدن الكبرى تتشابه كلُّها..

هنا.. يتلاقى الشرق والغرب.. تتلاقى الحضارات.

من سطح إحدى ناطحات السحاب في المدينة الضخمة نطلُّ على الآفاق الغُبْر الفسيحة.. على البر والبحر..

مرافقتنا الصبية الصينية تقول لي بالفرنسية:

أنت شاعر.. وما أظنك واجداً في مدينتنا ما تَنْشُد من هدوء وأحلام عِذاب. أليس كذلك؟

أجيب: أنا لست مع الهدوء والأحلام العِذَاب دائماً. لابد لنا أن نكون أبناءَ عصرنا، وأن نحاول أبداً البحث عن نبضات الشعر في قلب الصخب والضجيج.

في المساء يقام لنا احتفال فخم في قاعة أحد الفنادق.

يُطلَب إليَّ أن أقول كلمة في الاحتفال.

أُنشد في الحفل أبياتاً من قصيدة بعنوان: تحية إلى أصدقاء الشمس، يتولى نقل الأبيات إلى الصينية الصديق الصيني الأُستاذ عبد العظيم خِرِّيج الأزهر في مصر، ثم ينشرها في إحدى الصحف في اليوم التالي. تقول الأبيات:

يا أصْدقاءَ الشمسِ، يا صانعي

بَراعِمِ التاريخ.. منذُ اثّغَرْ!

عُذْراً.. إذا غنيتُ في موطنٍ

كلُّ ارتعاشٍ فيه لحنٌ عَطِرْ

تَفتَّحَ الفكرُ على دربكمْ

فـــالأرضُ غَرْقَـــى بِشـــهيِّ الثمـــرْ

يـــا صـــينُ.. يـــا أَعْـــرقَ أنشـــودةٍ

بـــاحَ بهـــا ثغـــرٌ، وغَنَّـــى وَتَـــرْ

بـــالرُّوحِ أبنـــاؤكِ.. هـــل صُـــغْتِهم

جمـــيعَهمْ.. مـــن نَفَحـــاتِ الزَّهَـــرْ

يكـــادُ يَنـــدَى اللفـــظَ فـــي ثغـــرِهم

أَهْـوَى علـى الثغـرِ نسـيمَ السَّـحَرْ

الناعمـــــاتُ الـــــدلِّ.. جاراتُنـــــا

تَقـــدَّسَ الـــدَّلُّ.. وعـــاشَ الخَفَـــرْ

وأصـــــدقاءُ الشـــــمس.. جيرانُنـــــا

والمبـــــدعو عالَمِنـــــا المُنْتَظَـــــرْ

الثـــورةُ الكُبـــرى.. وفـــي أضْـــلُعي

يـــا أخـــتُ منهـــا عربـــيُّ الشَّـــرَرْ

كُنَّـــا ومـــا زِلْنـــا.. جنـــاحَي ضُـــحىً

حُجولُنـــا مِـــلْءَ الـــدُّنَى والغُـــرَرْ(٢)

أودّع شانغهاي، وأنا أُغني مع زملائي من سورية العربية:

عَلِّـــي وطيـــري يـــا حمامـــةْ

وانزلـــــي بـــــدمَّر والهامـــــةْ

هـــاتي لـــي مـــن حبـــي علامـــةْ

هالأســـــمر.. أبـــــو الخـــــالْ

ثم أُودع الصين الشعبية بعد أيام بالطائرة هذه المرة.. يملؤني الحنين إلى دُمَّر، والهامة، ودمشق، وحلب، وقبوي المتواضع الصغير الذي تركت فيه أحلى وأغلى ما أملك: زوجتي وأطفالي وليالي السَّمَر والحب والشعر في بلدي.

٣

---

(٢) قصيدة: تحية إلى أصدقاء الشمس، الأعمال الشعرية، المجلد الأول، ص٤٠٩.

صيف ١٩٦٤

اليوم تلقيتُ رسالةً من صديقي الأستاذ «م» مدير إحدى دور النشر المعروفة في بيروت ينبئني فيها أنه سيعيد طباعة أربع مجموعات شعرية لي دفعة واحدة ويؤكد النبأ بإرسال مبلغ أربعة آلاف ليرة سورية هي مكافأتي على المجموعات الأربع.

ما كدنا نفرغ من الرسالة أنا وزوجتي حتى قررنا السفر.. نحن والأولاد هذه المرة.. أولادنا الثلاثة: معن وغيلان وبادية.

إلى أين؟ الوقت صيف، والناس كلهم يسافرون - إذا ما أُتيحت لهم الفرصة - في مثل هذا الوقت.

سنذهب إلى تركيا.. والجارة تركيا قريبة منا، وهي مصايف ومدن وبحار وجُزُر.. وطبيعة رائعة في كل مكان، كما يقولون.

وأربعة آلاف ليرة سورية تكفي في تلك الأيام لنطوف بها أرجاء الجارة العزيزة كلها.

وخلال أيام قليلة كنا قد أَعددنا أنفسنا، وهيأنا كل شيء للرحلة.

كنت ما أزال، وأُسرتي الصغيرة، نقيم في حلب.

مدينة الصخر، والنسمة الحلوة، والذكريات، وزهوة العمر.

وخططنا للرحلة بسرعة..

كانت المرة الوحيدة التي سمحت لي فيها السلطات التركية بزيارة مسقط رأسي.

سنمر بانطاكية، مدينتي الأُولى، القريبة البعيدة، الأليفة الغريبة.

وسنزور الأهل الذين فارقتهم منذ زمن بعيد..

سنعرِّج عليهم في المدينة، وفي القرية قبل كل شيء.

سأُحيي شجرة التوت، والتينة، والدالية القديمة في «بساتين العاصي».

سأُوقظ ملاعبَ طفولتي الأُولى بأكثر من قصيدة، بأكثر من أُغنية، وسأُرافق أطفالي الثلاثة إلى نهر «العاصي» القريب ليسبحوا في «دَوَّار الصفصافة» كما كنت أسبح فيه وأنا طفل مثلهم، وأن كان نهري القديم، الغزير الماء والعطاء قد تحوَّل عبر السنين إلى ساقية، أو كاد.

القرية كلُّها تحتشدُ في ساحة بيتنا القديم مساءً، احتفاءً بطفلها الشاعر العائد إليها بعد غربة السنين.

أخي الشيخ علي الذي يَصْغُرني بعامين يتصدَّرُ الاحتفال.

الشيخ علي، القرويُّ العِصَاميُّ الذي أَتْقَن أكثر من حِرْفةٍ، وبَرَع فيها، تاركاً لغيرهِ مِهْنَة الحُلُم.

صبايا الأُسرة وشبابُها يعقدون «الدبكة».

وتصدحُ «الدلعونا». وبقيةُ أغانينا الشعبية.

ونشاطرُ أهلَنا مهرجانَ الفَرَح الذي أُقيم لنا..

إنَّ جذورنا باقية.. وإن كانت الرياحُ ما تزالُ تعصفُ بأغصانِ الشجر، وتحاولُ جاهدةً تغييرَ كل شيء، منذ أمد بعيد.

ثلاثة أيام أو أربعة - لا أذكر - عانقتُ فيها مدارجَ الطفولة، استعدتُ الدقائقَ واللحظاتِ في حارتنا الصغيرة، عشنا مع الأهل والأقارب والجيران، أنشدتُهم بعضَ ما قلتُ من شعر في قريتي، أحسستُ أنهم كانوا يطاولون السماءَ اعتزازاً بشاعرهم الذي ما زال يحفظُهم في أعماقه، ويَعُدُّهم مصدر وحيه وإلهامه أَنَّى حلَ، وحيثما رَحَل.

- لا تواصلوا رحلتكم إلى أنقرة واستانبول قبل أن تعرِّجوا على «قصر الأميرة»، وهو غير بعيد عنَّا.

قالت هذا شقيقتي وحيدة، أم حسن، بشيء من الإصرار، والرغبة في أن تضمن لأخيها وأُسرته الصغيرة متعةً من مُتَع السفر النادرة في رأيها.

قلت: وما «قصر الأميرة» هذا، يا أُم حسن؟

أجابت: شاطئ جميل، بالقرب من (مرسين)، تحملكم إليه السيارة في أقلَّ من ساعة. أعرف ولعَكَ بالسباحة منذ الصِّغَر، وستجد في ذلك الشاطئ الناعم اللازوردي بُغيتكَ أنت والصغار.

كنا نجلس في ظل شجرة ضخمة من أشجار المزرعة الخضراء التي تملكها الشقيقة أُم حسن في ضاحية «ترسوس» وتديرها ببراعةٍ يغبطُها عليها أمهرُ المزارعين.

ولم نتردد في تنفيذ الاقتراح..

في صباح اليوم التالي كنا - أُسرةَ الشعر والسفر الصغيرة - على شاطئ «قصر الأميرة» نستقبل أشعة الشمس الأُولى ونحن في البحر، نَنْعَم بالماء الأزرق الهادئ الصافي الذي سبقنا إليه السيَّاح من مختلفِ الأرجاء.

كانت الشقيقة أُم حسن على صواب..

هذا الشاطئ الوادع الصغير من أجمل الزوايا الشاعرة التي يمكن أن يفرَّ إليها المُتْعَبون ليُلقوا على رماله الناعمة، ومياهه البرَّاقة البديعة الألوان بعضَ أشجانهم ومتاعبهم فترةً من الوقت.

على بعد كيلومتر من الشط تقوم قلعةٌ في وسط البحر، أشبه بجزيرة صغيرة، يُطلقون عليها اسم «قلعة البنت»، بالتركية «قيز قاليسيه»، أو «قصر الأميرة» كما عرَّبتُه أنا، ومن هنا جاء اسم الشاطئ الذي ألقينا عنده عصا التَّرْحال. ولقد أَصرَّ الصغيران معن وأخوه غيلان - في غفلةٍ منا - على تحدِّي المسافة التي تفصل القلعةَ عن الشط، واجتازاها سابحَيْن، وراحا يقفزان بين الصخور، ثم عادا إلينا لنتلقاهما بعاصفة من التوبيخ على هذه «المغامرة»، وإن كنتُ في أعماقي مع الأطفال الشجعان المغامرين.

وفوجئنا عند الظهر بأُم حسن..

جاءتنا من المدينة، تحمل بين يديها سلاً كبيراً ملأته «بالأطايبِ».. بألوان من الطعام والفاكهة ما كانت لتتوافر لنا بالتأكيد في ذلك الشاطئ النائي، تساعدها في الحمل ابنتاها الصبيَّتان: سميحة وزهراء.

واستقبلناها بالضحكات والترحيب..

- ما هذا أيتها العزيزة؟ أتظنين أننا مُنْبَتُّون[3] هنا في الصحراء؟

- هذا يُكمل متعتكم.. لابدَّ أن تذوقوا فاكهة المزرعة التي أُعْنَى بها هنا، على هذا الشاطئ الوديع.

وتذوَّقنا «أطايبَ» السلِّ، سَلِّ أُم حسن المُتْرَع بالذوق والكَرَم.

وعدنا إلى أحضان البحر.. ومعنا في هذه المرة الحلوتان الصغيرتان سميحة وزهراء.. السعيدتان بلقاء الخال الشاعر الذي سمعتا عنه الكثير من أُمهما قبل أن تعرفاه، ولقاءِ أُسرتِه التي تملأ المكان بهجةً ومرحاً ونشاطاً في رأيهما.

لم تكن الشقيقة الطيبة الكريمة ترضى أن نواصل سفرنا قبل أن نقضي عندها أُسبوعاً على أقل تقدير.

- نحن لم نركَ منذ خمسة وعشرين عاماً.. وها أنت تعود مع زوجة رائعة وأولاد «يأخذون العقل».. فلماذا لا تبقى معنا قليلاً؟

- فرصتنا محدودة، ونحن مرتبطون بوظيفة وعمل يا أُم حسن، كما تعلمين، فائذني لنا نُفِدْ من هذه الفرصة الضيقة، ونجعل الأولاد يستمتعون ويَطَّلِعون.

السفر متعة واطِّلاعٌ ومعرفة في رأينا. أما أنتم فسوف تظلُّون مدن وأسفار - م٢

وسنعود إليكم ذات يوم.. لابدَّ أن نعود.

بهذه الكلمات.. استطعتُ أن أُخفف من إلحاح الشقيقة، ودعوتها التي كانت أقرب إلى التوسل الموشَّحِ بالحب العميق.

وانطلقت بنا السيارة الكبيرة إلى أنقرة واستانبول.

لا أخفي إعجابي بذلك الإنسان الذي قَرَّر ذات يوم أن يزرعَ في أعماق القفر النائي من البلاد مثل هذه المدينة الجميلة «أنقرة»، ويجعلها عاصمةً للبلد، ويسوِّرها بالخضرة والنضرة والماء.

من الفندق الجميل الصغير انطلقتُ إلى أول مكتبة في الشارع ابتاع قاموساً صغيراً - بالتركية والفرنسية - استعين به على ترجمة كل عبارة نحتاج إليها في رحلتنا. إنني ألمُّ بالتركية منذ الطفولة، ولكن مثل هذا القاموس سيكون عوناً لي حيثما كنت.

هناك مدن تصنعها الطبيعةُ قبل الإنسان..

تعطيها ما تشاء من عناصر الجمال قبل أن يتدخل البناءُ والعمران.

أمَّا «أنقرة» العاصمة الأنيقة الرشيقة فإنها من صنع الإنسان.

---

(٣) المنبَتُّ: المنقطع.

هذا ما بدا لي وأنا أطوف الشوارع ـ مع قافلتي الصغيرة ـ نتعرَّفُ معالم المدينة وحدائقها طَوالَ النهار.
لن يطول بنا المكثُ هنا..
سنترك الفرصة الأُولى من أيامنا الباقية لاستانبول..
الزمرَّدة التي يَشْطُرها الماء، وتقف لِتُشِعَّ جمالاً وبهجةً وسحراً بين قارتين.
في فندق صغير، غير بعيد عن «أياصوفيا»، كنيسة العاصمة التاريخية التي تحولت إلى مسجد، ثم إلى متحف،
وضعنا حقائبنا غير المُتْعِبة، وجلسنا على الشرفة نتأمل ما حولنا.
الأولاد في شوق ولهفة إلى النزهة، إلى التجوال، إلى الطواف في كل ركن من أركان هذه المدينة الكبيرة التي لا تبدو غريبةً، ولا بعيدة عنهم.
لقد عبروا قبل لحظات «البوسفور» الذي يشطرها إلى شطرين، وها نحن أُولاءِ نستقر في شطرها الغربي الذي يكاد يضم تاريخها العريق.
أسبوع كامل أمضيناه في هذا البلد الذي انصهرت فيه الحضارات، وتلاقت الشعوب، وتعانَقَ في رحابه الغرب والشرق، ولكنَّ رائحتنا، رائحة الحضارة العربية الإسلامية ظلت تعبقُ فيه، وتملأ الجو كله بنكهتها وتراثها وتقاليدها وعاداتها ومآذنها وقِبابها.

رائعة البوصيري الطويلة التي ازدانت بها جدران (توب كوبي)، أول قصر بناه العثمانيون في عاصمتهم الجديدة، لا يرى فيها السيَّاح الأجانب إلا زخرفاً ونقشاً على جدار. أما أنا فكنت أُردد أبياتها التي تلفُّ جدرانَ القصر كله تقريباً، في داخل الغرف، والتي خطها خطاط ما أشك أنه كان أمهر من أمسك بقلم عربي للخط في عصره، واختار لأبياتها اللون الأزرق المُشِعَّ، كأنما ينقل إليك زرقة البحر المجاور، يملأ به بصرَكَ وخيالَكَ متعةً لا حدود لها، وفنّاً عربياً يبلغ حد الإعجاز.

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بِذِي سَلَمِ
مَزَجْتَ دمعاً جَرَى من مُقْلَةٍ بدمِ؟

وتنساب القصيدة شريطاً من الروعة الفنية على أعلى الجدار في كل حجرة من حجرات القصر العريق لِتَهبَه جلالَه ومعناه في رأي المصمِّم العظيم الذي أوصى بنقشها، ورَأْيِ السلطان نفسه الذي ربما رأى في قصيدة «البُردة» النبوية حِرْزاً له من الأعداء، ووقاءً من نوائب الزمان.

بادية طفلتنا الصغيرة، برعم الأعوام السبعة، لا تهتمُّ كثيراً بالقصور، ولا بالمتاحف.. إنها تريد أَن تسبَح. البحر يرمقنا بعينيه الزرقاوين وضفافه الساحرة من كل مكان، فلماذا لا نَسْبَح؟ بادية الصغيرة على صواب.

ولم يكن أخواها معن وغيلان بأقلَّ من أختهما حماسةً للارتماء بين أحضان الماء في أول شاطئ يتاح لنا أن نزوره.

ويصادفنا في الطريق عربيٌّ من لواء اسكندرون سمعنا نتحدث العربيةَ فاقترب منا، وحيَّانا، وبَدأَنا الحديثَ في لهفة، يريد أن يعرفَ عنا كلَّ شيء.

وسألنا خلالَ الحديث عن شاطئ جميلٍ يعومُ فيه الصغار..

فأجابنا على الفور: (فلوريا).. اذهبوا إلى (فلوريا).. خذوا القطار الصغير.. إنها غير بعيدة.. وإن شئتم كنتُ دليلكم إليها. إنها أجملُ مُتَنَزَّهٍ بحريٍّ في هذا البلد.

بادية الآن بين أحضان البحر اللازوردي في (فلوريا)، تعومُ في الماء كما تعوم الفراشةُ في الهواء، أو قطرةُ الضوء في الفضاء، و«قافلتي الصغيرة» كلها من حولها، والناس يملؤون الشاطئ حركةً وحياةً من كل أرجاء الدنيا.

ويمرُّ نهار.. ونغادر الشاطئ الجميل مع أشعة الغروب.

(فلوريا).. أيتها الذكرى الحلوة التي تلمع في الخاطر بعد نيف وثلاثين عاماً.

«رمالنا الذهبية» على الشاطئ العربي السوري ليست الآن أقلَّ نصيباً ولا أدنى حظاً من المتعة والبهجة والشعر والجمال.

ولكنك مع هذا تظلين ومضةً حلوةً، من وَمَضات السفر، وبيتاً من قصيدة العمر.

«أيا صوفيا..» كنيسة قسطنطين الكبير التي أصبحت مسجداً لم تُثر اهتمامي كثيراً.

الآية الفنية التي وقفتُ تحت سقوفها طويلاً، أتملَّى النقوش والخطوط والتعاريج تموجُ باللون الأزرق، كانت جامع السلطان أحمد الذي يُطلقون عليه اسم «الجامع الأزرق».

المهندس العبقري الذي ترك لفن البناء مثل هذا الأَثَر المُرْهَف العظيم كان شاعراً عظيماً.

قالت زوجتي:

سنترك الأولاد في الفندق، بعد أن تعبوا من جولات النهار. مدير الفندق، هذا الكهل التركي الطيب، أصبح يعدُّهم مثل أولاده. سينامون بعد قليل، وسنمضي نحن في نزهة المساء.

ونزهة المساء كانت حلماً صغيراً طاف بالبال منذ حللنا لؤلؤةَ البوسفور.

كنت منذ زمن بعيد أعرف أنَّ الشاعر الفرنسي «بيير لوتي» قد شُغِف ذات يوم باستانبول، وعاش فيها ردحاً من الزمن، وقال فيها الكثير من الشعر، وأن هناك مقهى صغيراً يحتلُّ أعلى الهضبة التي تشرف على المدينة، سمَّوه مقهى «بيير لوتي»، ذلك لأن الشاعر تعوَّدَ أن يرقى إلى الهضبة، وأن يُمضي الساعات الطوال هناك، على القمة، بين أشجار الصنوبر والسنديان، يتأمل «لؤلؤتَه» الساحرة من علٍ، وهو غارق في الظلال والألوان.

إلى أعلى الهضبة إذاً.. إلى المقهى الشاعر.. مقهى «بيير لوتي»!
تلك هي «نزهتنا» المسائية اليوم..
وسألنا عن الطريق.. وعلمنا أنه درب ترابي ضيق، يمتلئ بالحجارة والحصى والأشواك.
قالت زوجتي: ليكن.. لا بُدَّ أن نصعد.. ولو بدأ الظلام يهبط.
ونضلُّ الطريق الوعر إلى القمة، ويلقانا جندي تركي شابٌ فيصرُّ - بإنكليزية مهشمة - على أن يكون دليلنا إلى المقهى. ما كان أطيب ذلك الفتى الريفي! لقد ظلَّ في صحبتنا حتى بلغنا المقهى، ودعوناه إلى أن يبقى معنا يرتاح قليلاً ويتناول بعض «المرطِّبات».

الأشجار الضخمة تُحْدِق بالمقهى الشعري الصغير، بل إنها تتوسطُه، وتجعل المقاعد والمناضد البسيطة الأنيقة تنتثر بين جذوع الأشجار الباسقة. أنت هنا في غابةٍ صغيرة لا في مقهى.
«القرن الذهبي».. آية البوسفور التي تأخذ بالألباب.. تمتد في أسفل الهَضَبة، تحت أقدامنا، تموجُ فوقها الأضواء عند المساء، فتحس لروعة المشهد طعماً آخَرَ، ومذاقاً لا تعرفه ولا تحسُّه في أي مكان.
«بيير لوتي».. كان على حق في عشقه للمدينة التاريخية، ولهذه البقعة بالذات.
لقد شتمه الشاعر التركي الكبير ناظم حكمة - فيما أذكر - لأنه تغنّى في شعره باستانبول.. ولم يتغَنَّ بالكادحين.
الفن والجمال ليسا ملكاً للكادحين وحدهم يا شاعري الكبير..
لقد قَطَّرنا عمرنا نغنِّي الشجرةَ ونقاتلُ من أجلها لِنُصْلَبَ أخيراً عليها.
دعني أهمس في أُذن شاعرنا الثائر الذي لقيتُه ذات يوم في بيته، في ضاحية من ضواحي العاصمة السوفيتية، وقد هَدَّمته السنون:
إنني لم أعد أبحث - بعد التجربة المرة الطويلة - لا عن كادحين، ولا عن كانزي الملايين..
إنني الآن أبحث عن الإنسان..
ولستُ في الوقت نفسه نادماً على حرفٍ واحد قلتُه أو كتبتُه في حياتي. تلك كانت حياتنا.. وحَسْبُنَا أنا كنا مع أنفسنا ومع غيرنا صادقين.

* *

انقضى الأسبوع.. إجازتُنا توشك أن تنتهي..
وداعاً «لؤلؤةَ البوسفور».
وجُزُرَ البوسفور القريبة الأليفة!
وداعاً استانبول..
وإلى لقاءٍ.. رُبَّما!

٤

بيتنا الكبير..
أعني الوطن العربي.. الذي مَلأَ حياتي وشعري،
هل أتحدث عن أسفاري فيه؟
إنها مزروعةٌ في قصائدي.. في «أعمالي الشعرية».
تكاد تَشْغَل قصائدي، وأعمالي الشعرية كلها.
ولذلك آثرت حتى الآن أن أسجل بعض اللمَحات التي تركت بَصَماتها على الشريط، والتي كانت خارج «البيت الكبير».

* *

أنا الآن في غرفتي الصغيرة، على مكتبي، في «شقة» من السَّكَنِ الجامعي الذي أُقيم فيه أنا والدكتورة، منذ مطلع هذا العام الدراسيِّ، في صنعاء، استعيد الماضي، وأُحاول أن أُثبت على الورق بعض محطَّات العمر، بعض الوَمَضات التي رأيتها جديرةً بالتسجيل.
ومنذ الصفحة الأُولى في هذا الشريط الذي سميته: ملامح سيرة ذاتية قلت: لا أُريد أن أُرهقَ القارئَ بمتابعتي ولا بسيرتي.
ومع ذلك فإني أخشى أن أكون قد أطلتُ حيناً، وأسهبتُ من حيث أردتُ الإيجاز، وأرهقت القارئ فعلاً.. فَلْتعذرني الكلمة.. وَلْيعذرني قارئُها العزيز.

٥

«أنا هَيْمانُ.. ويا طَولَ هُيامي
صُوَرُ الماضي ورائي وأمامي»

ينسابُ صوتُ عبد الوهاب من «المسجِّلة» في صالة الجلوس بهذا المقطع من أغنية «الكرنك» عَذْباً، رقيقاً، صافياً كندى الصَّباح في نيسان.
قصيدة «الكرنك» أَرْقَى وأمتع ما غَنَّى مطربُ الملوكِ والأمراء في رأيي.
الدكتورة تحب أغنية:
«إيمتى الزمان يسمح يا جميل؟»
لعبد الوهاب أيضاً، وتقف خاصةً - وأقف معها - عند هذه الصورة البديعة:

«والموج بيحكي حكاية
للشط.. ما لها نهاية»

مَنْ منا لم يَحْلُم أن يكونَ حكايةً بلا نهاية؟
من منا لم يطمَعْ بالخلود؟
بسهرةٍ «على شط النيل»، على أقل تقدير، إذا تعذَّرَ الخلود.

تداعي أفكار.. لا بأس. نصفُ حياتنا تداعي خواطر وأفكار.
«صورُ الماضي.. ورائي وأمامي».
سأختار الآن..
سأضع يدي على هذه اللَّمَحات، هذه الصور التي تُلحُّ عليَّ، وأمرُّ بها موجِزاً ما استطعتُ.

* *

في ذات يوم.. نتلقَّى أنا والدكتورة دعوةً من الجزائر لزيارتها في عيد استقلالها العاشر.
الإخوة الجزائريون لا ينسَوْن أني شاعر «صلاة لأرض الثورة».
وأن زوجتي نقلت إلى العربية أروع ما أبدعه كتّاب الجزائر بالفرنسية:
رواية «نجمة» الفذة.. ومسرحيتَي «الجثة المطوَّقة» و«الأجداد يزدادون ضراوةً» لصديقنا الراحل كاتب ياسين.
وديوان «الشقاء في خطر» لصديقنا الراحل أيضاً مالك حداد.
قمنا بهذا العمل إبَّانَ الثورة في حماسة وإيمان بالثورة لا حدود لهما، وعددنا ذلك ضرباً من المساهمة في النضال الرائع الذي يخوضه إخوتنا هناك. ودَيْناً في أعناقنا لابد أن نؤديه.
تذكرتا سَفَر بالطائرة.. على الخطوط الفرنسية.. من الدرجة الأُولى.
ياه.. إنها المرة الأُولى التي تقع في أيدينا تذكرة من الدرجة الأُولى.
لسنا من عشاق «الدَّرَجات» ولا من المعجَبين بأصحابها.
ولكنها فرصةٌ.. أجل فرصة.. حسبناها بسرعة..
وسنُفيد منها أقصى ما نستطيع أن نُفيد.
سنحوّل «الدرجة الأُولى» في الطائرة إلى «سياحية»، وسيكون بإمكاننا أن نزور الجزائر وفرنسا ـ وربما بلداً ثالثاً ـ إذا أضفنا إلى الثمن بعض النقود.
وهكذا كان..
في مطار الجزائر العاصمة يستقبلنا صديقنا الشاعر الأخضر السائحي الصغير ببيتين من شعره آثر أن يكونا تحيته الأُولى لنا.
في الجزائر سائحيان كبير وصغير.. وكلاهما شاعر وصديق حميم.
ما نكاد نستقر في غرفتنا بالفندق حتى يرن الهاتف:
ـ السهرة عندي اليوم في البيت. لقد علمنا بقدومكما، وأعددنا سلفاً كل شيء. خُذا قسطاً من الراحة الآن، وسأمر لاصطحابكما بسيارتي بعد ساعتين، أهلاً ومرحباً بالدكتورة وبالشاعر!
كان المتحدث صديقنا العزيز القاص الجزائري، الروحُ الشفَّافُ المرح، الدكتور أبو العيد دودو.
ما أقربَ هذا الإنسان إلى القلب! لقد زارنا في «قبونا» في دمشق، وعرفناه وعَرَفنا

عن كَثَب، وها هو ذا يلقي علينا «أوامره» بالسهرة عنده في البيت، في أول يوم نحلُّ فيه هنا، وهيهات أن نُفْلِت من الدعوة المترَعةِ حبَّاً تحت أي عذرٍ كان.

«ثُلَّة» من الأصدقاء، تحتشد مساءً في بيت القاصّ الصديق..

وعلى مائدة يتصدرها «كبشٌ» مُعَدٌّ لعشاء الضيوف.. نتحلَّق ونبدأُ الحديثَ والسَّمَر والفُكاهةَ والغناءَ.

لقد فاز صديقنا أبو العيد بجائزة القصة القصيرة في الجزائر منذ يومين، وقرر أن يحتفل بقدومنا وبالجائزة بكبش عظيم يليق بنا وبفوزه المبين.

المطرب الجزائري الصديق «درياسه» كان معنا في السهرة.

لم يَدَعْ أغنية من مشرق الوطن العربي ومغربه إلا أتحفنا بها. ولكن أغنية الأُمسية التي توهجت في ذلك الحفل الشاعري البهيج كانت أغنية الجزائر الشعبية المعروفة «نجمة قطبية» والتي تألَّق بها صوت المطرب الصديق، وتألقنا كلنا معه في الغناء.

كانت الجزائر في عيدها العاشر «نجمة قطبية» بالفعل، تتألق في أنحاء العالم.. وكنا نحن سعداء بالثورة وبالاستقلال وبالعيد الذي كان عيدنا، وعيد الأحرار في كل مكان.

سلمى الصغيرة ابنة الصديق الدكتور أبو العيد تطير من حولنا كالفراشة تشاطرنا المتعة والغناء.

اكتب لها في دقائق نشيداً صغيراً. اسم سلمى يلاحقني في أكثر من مكان.

تحفظه الصغيرة فوراً عن ظهر قلب وتغنِّيه لنا في زهو واعتزاز.

في صباح اليوم التالي نحضر الاحتفال بالعيد.

مهرجان ضخم تعرض فيه الجزائر هُويَّتَها التي تحررت بعد نيفٍ ومائة وثلاثين عاماً من الاحتلال والاستلاب.

ولكن معركة الهوية لما تُحسَمْ..

فالصراع بين الفَرْنَسةِ والتعريب ما يزال قائماً.

ولا يمكن أن يُعادَ ما طُمِسَ وزُوِّر من تاريخ بين عشية وضحاها.

لقد خاضت الجزائر معركة التحرير، وخرجت منها ظافرة أروع ما يكون الظفر.. ولابد أن تخوض معركة التحرُّر من كل ما يشدها إلى الوراء، وستخرج يقيناً من الثانية ظافرةً كما خرجت من الأُولى، ذلك هو منطقُ التاريخ.

بضعة أيام نمضيها مع الإخوة في «أرض الثورة». أُنشد فيها قصيدتي الجديدة في عيد الاستقلال العاشر، في لقاء يُعده التلفزيون الجزائري لشاعر العروبة والطفولة - كما سمَّاني الأخ المذيع -. ونزور بعض المدن القريبة التي تنتثر على الشاطئ، ثم

نودِّع «أرض البطولة» التي غنيتُها ثلاثين عاماً بلا انقطاع[٤].

٦

في فندق صغير، في حي «مونبارناس» بباريس، نلقي حقيبَتَيْنا المتواضعتين، أنا وزوجتي، وننطلق في شوارع المدينة التي عرفناها من قبل، مدينة الحرية والنور. أؤكد على الحرية لأنها في رأيي مصدر النور في كل زمان ومكان.. وأكاد أجزم أن أعلى وأغلى ما حققته البشرية من إنجاز كان: حرية الفكر.

أنا والدكتورة نتكلم الفرنسية في يُسر.. ولن نجد إذاً أية صعوبة في طريقنا إلى الحدائق والمتاحف والأماكن التاريخية الشهيرة في باريس.

هي مولعة بالمتاحف..

وأنا مولع بالحدائق..

سنحاول أن يُرضيَ كل منا «هوايته»، وأن نكون معاً في كل مكان.

قالت أُم معن:

كنت في السابعة عشرة من العمر.. عندما مررت أول مرة بباريس. طفلة.. تحمل البكالوريا الثانية من سورية، وترحل في بعثة للتحصيل العالي في جامعة بروكسل. لا أذكر كيف مررت بالعاصمة الضخمة آنذاك مرور العصفور في الغابة. أمَّا الآن فإني أستطيع أن أعي كل شيء.. وأُفيد من كل شيء في هذه الزيارة.. فرصتنا ضيقة، وإقامتنا هنا محدودة.. ينبغي ألاَّ نضيع شيئاً من وقتنا.

قلت لزوجتي:

في زيارتي السابقة، طفتُ معظم الأماكن الهامة في المدينة: نوتردام، برج إيفل. قبر نابوليون، قصر فرساي في ضواحي العاصمة، ولكني لم أرَ «اللوفر» بعد. لنبدأ طوافنا في «اللوفر» إذاً، هذا المتحف الذي قيل عنه: إنه خلاصة باريس.. وربما خلاصة الحضارة في العالم.

عَدَّت الدكتورة اقتراحي هذا تلبيةً لإحدى رغباتها الأساسية، وغصنا في «المترو» تحت الأرض، نريد «خلاصة باريس».

لا أدري كم ساعة أمضينا ونحن نجول في قاعات المتحف العظيم.. نتأمل روائع ما أبدعه الفن، وما أنتجته العبقرية على مر العصور.

والغريب أني وجدتُ نفسي في المتحف العظيم..

لا تستغرب العبارة يا قارئي العزيز..

ما أظنني أُبالغ إذا قلت: إن أهمَّ وأثمنَ ما في «اللوفر» هو روائعنا القديمة.. حضاراتنا العربية.. الآثار والتحف السومرية والآشورية والكلدانية والفينيقية والمصرية التي تملأ العديد من القاعات.

---

(٤) انظر: «ديوان الجزائر» الذي صدر في الجزائر العاصمة منذ أمد قريب للشاعر.

كلها روائع عربية.. وإبداع عربي..
ومرة أُخرى اذكِّر القارئ العزيز أن العرب ليسوا عَبْساً وذبيان، وداحس والغبراء، وقصة الزير سالم وسيرة عنتر وحسب.
إننا نسيج حضاري هائل ضارب في أغوار التاريخ، أعطَوْه مئات الأسماء، ويظل اسمه الحقيقي: التاريخ العربي.
دعني أشرد قليلاً في ذكرى عابرة..
منذ أعوام زرت مدينة روما.. هذه العاصمة الشاعرة التي تزرع البهجة في نفسك حيثما أدرت وجهك فيها.
كنت في صحبة رفيق الصبا الرسام الراحل أدهم إسماعيل. كان يتابع دراسته الفنية العالية هناك.
وقررنا أن نحضر (أوبرا عايدة) في المساء.. قال صديقي الرسام:
إنها تُعْرَض الآن في أجمل بقعة في روما.. في «حمّامات كَراكَلاَّ» وهي فرصة لا ينبغي أن تفوتنا.
وتعبر في البال خاطرة لا أستطيع أن أطردها.. ولماذا أطردها؟
«عايدة» قصة من الشرق.. من بلادي.
و«حمّامات كراكلاَّ» نفسها.. أجمل بقعة في روما بناها مهندس عربي سوري. هذا ما يقوله التاريخ.

* *

وأعود إلى باريس. إلى «اللوفر» العظيم،
لقد تعبتُ من التجوال في الغرف..
الدكتورة لا تتعب.. إنها تود أن تقف عند كل لوحة، وكل تمثال، لو أمكن.
تركتها تتأمل ما شاءت..
وانسحبتُ إلى مقهى صغير في الحديقة.. انتظرها وأسرح مع نتف الغيوم السابحة في الفضاء.
جولة ما بعد الظهر.. ستكون للحدائق.
الحدائق في باريس متاحف طبيعية.
إنها مزروعة بالتماثيل من كل صنف.. مزروعة بالفن والجمال.
ونشرد مع الشجر والماء والحجر..
ونتعب.. فنتخذ لنا مكاناً على مقعد مريح في حديقة «التويلري» الرائعة. بالقرب من حافة البركة الفسيحة فيها، نتسلى بإطعام السمك الذي كان يقفز من الماء في حركات بالغة الرشاقة، نرمي إليه بفتات الخبز الذي حملناه معنا من أجل هذه التسلية بالذات كما يفعل كثير من زوَّار الحديقة مثلنا.
في الطريق إلى الفندق.. نمر بأَحَدِ المخازن الرائعة لعرض الثياب.

أتوقف قليلاً.. وندخل معاً المكان الفسيح الجميل.. نستعرض فيه روائع «الذوق» هذه المرة.

يستوقفني ثوب وردي بسيط في إحدى الزوايا.

أقول للدكتورة:

لابد أن نشتريه.. أعرف أن نقودنا قليلة.. ولكنك ستأخذينه ولو بقينا يومين بلا طعام.

تضحك أُم معن:

- أنا لست ضد الثوب الوردي.. ولكني أوثر أن نوفر بقية نقودنا لمتع صغيرة أُخرى.

أجيب:

القصيدة والثوب الجميل كلاهما فن ممتع.. كلاهما شعر.

نبتاع الثوب الوردي البسيط، ونخرج وأنا أشعر أني قد أنجزت قصيدة جميلة جديدة.

* *

في المساء.. يزورنا في الفندق الملحق الثقافي السوري في باريس الصديق «هشام».

- عرفت أنكما هنا منذ ساعة فقط. لِمَ لم تخبراني بقدومكما؟ سيارتي، الصغيرة تحت تصرفكما منذ الآن يا شاعرنا العزيز. باريس معروفة لديكما تقريب

صباح غد إلى ضاحية رائعة لا تبعد كثيراً عن العاصمة.. سنذهب إلى «فونتِنْبلو».

وفي صباح اليوم التالي كان الصديق الأُستاذ «هشام» بانتظارنا في صالة الفندق، ليطير بنا في سيارته الصغيرة إلى ذلك «الفردوس» الهادئ الصغير.. بالقرب من العاصمة.. إلى «فونتِنْبلو».

البساتين والعرائش الخضر تُحدق بنا ونحن في طريقنا إلى القصر التاريخي الذي أقام فيه نابليون، وفيه تنازل عن العرش. نطوف ردهات القصر على عجل.. وأنا أرثي لنابوليون العظيم، المسكين الذي ملأوا صفحات التاريخ بكل طلقة مدفع أطلقها، وسجلوا معاركه وحروبه بالتفصيل، ولكنهم كانوا يَنْسون دائماً أنه هو الذي نقل فرنسا من حكم «الأُسقف» و«الدير» إلى قلب العصر الحديث.

سيظل الناس أبداً يُبْهَرون بضجيج العظمة، وعَظَمة الضجيج..

٧

نحن الآن على هَضَبة «الأكروبول» في آثينا..

طرنا إليها من باريس، ليستقبلنا هناك رفيق الطفولة والغربة الأخ علي محسن

زيفة.. سفيرنا في اليونان آنذاك.

ألم أقل في مطلع هذا الحديث أننا قد يتاح لنا أن نزور «بلداً ثالثاً» ونحن في طريق العودة إلى دمشق؟

هنا كان فلاسفة اليونان العظام يتمشَّون، وهم يتحدثون إلى تلامذتهم، ويشرحون أفكارهم، ويبحثون ويناقشون، قبل نَيِّفٍ وعشرين قرناً من الزمن. سقراط، أفلاطون، أرسطو.. الخ.

كلهم تنقَّلوا على هذه الهَضَبة، كما نتنقَّل الآن، وتركوا للتاريخ «المعجزة اليونانية» كما سماها الغرب.

ولكن صديقنا الباحث المؤرخ الشاب الدكتور أحمد داود، أُستاذ التاريخ في جامعة دمشق، يؤكد في أبحاثه وكتبه الجديدة الرائدة أنَّ أكثر من نصف «المعجزة اليونانية» جاء من سورية ومصر.

ما أشك في أن دراسات هذا المؤرخ الشاب وكتبه ستفتح صفحة جديدة، وتجلو حقائق حاول الكثيرون طمسَها أو تجاهُلَها عَبْرَ العصور.

لا أُريد أن أقف كثيراً عند هذه الأُمور.. وسأظل معجباً بهذه «المنارة» الحضارية أثينا، عاصمة جيراننا الإغريق، التي أعطت العالم وأعطتنا الكثير.

يقول رفيق الطفولة والغربة السفير:

دعونا من التاريخ والفلسفة الآن..

سنقضي اليوم سهرة ممتعة مع الغناء والطرب اليوناني في الحي القديم تنسيكم عناء الرحلة. إن موسيقا إخواننا اليونانيين وغناءهم قريبان، من موسيقانا وغنائنا.

وهكذا كان..

فقد كانت أمتع اللحظات التي أمضيناها في تلك الزيارة العابرة للبلد الصديق هي سهرتنا التي لا تُنْسَى في أحد «الملاهي» العتيقة، في الحي القديم.

كنا نشعر أننا فعلاً مع «ليالي الشام» وبيروت والقاهرة.

«مشاوير» عديدة خاطفة قمنا بها مع الأخ والصديق العزيز.

لم يترك مكاناً يستحق الزيارة إلا وصَحِبَنا إليه..

كان بودي أن أُسجل العديد من تلك اللَّمَحات الحلوة..

ولكني بدأت أحسُّ أن الحديث قد طال، أو أَخَذَ يطول..

فَلْيأذن لي قارئ هذه الذكريات أن أطوي دفتري الآن.. وأن أحطَّ رحالي ـ أنا وهي ـ في بيتنا الصغير.. في دمشق.

وشكراً للجزائر.. ولعيد الاستقلال..

ولِتِذكرتَي «الدرجة الأُولى» اللتين أتاحتا لنا كل هذه «الذكريات» العِذَاب.

٨

إلى حَفيدي كِنان .. في دُبَي

أنا قادِمٌ..

سـأكونُ ضـيفَكَ فـي دُبَـيٍّ يـا كِنـانْ

هَيِّـئ لـيَ الشـمسَ التـي هـيَ رَمزُنـا

هَيِّـئ لـيَ البَحـرَ الـذي هـو كَنزُنـا

هَيِّـئ لـي الرمـلَ النَّقـيَّ علـى شـواطِئِكَ

خُـذني.. لنسـبَحَ فـي الخلـيجِ أنـا وأنـتْ

نَنسى بِزُرقةِ موجةٍ

شَجَنَ النهارِ.. أنا وأنتْ

ونغيبُ عمَّا حولَنا

ويذوبُ في يَدِنا الزمانْ

أنا قادِمٌ..

والشعرُ مِلْءُ ربابتي، غَدِقَ البيانْ

هو كلُّ ما تركَت ليَ الدنيا.. وحَسبي يـا

ما باعَ جَدُّكَ نبضةً

حَرَّى.. بِزَهوِ الصَّولجانْ

هَيِّئ ليَ الصحراء، إني

يا حفيدي جارُها

ونشيدُها منذَ اصطفاني

للهوى قِيثارُها

أنا قادمٌ بالباقياتِ من الرؤى والعُنفُوانْ

يتَقَصَّفُ العُمُر الجريحُ،

وفي الجوانحِ خَفقَتانْ

لكَ، للطفولةِ يا صَغيري

وَحدَها.. تستسلِمانْ

هَيِّئ ليَ «اللّعَبَ» التي

تختارُها.. هيَّأتُ ألفَ حكايةِ

لكَ حينَ آتي

بخيالِ جدِّكَ عابقاتِ

وبحُلمِه مُتوشِّحاتِ

وبحبِّه مُتلألِئاتِ

وأنا وأنتَ معاً سنملأُ بالأراجيح المكانْ

ومعاً سنلعَبُ بالقطارِ

ونمتطي مَتنَ الحِصَانْ

وإذا أبوكَ وأمُّكَ اعترضا..

شَغَبنا باتِّزانْ

للعقلِ سطوتُهُ..

وتأسُرني الجيادُ بلا عِنانْ

* *

أنا قادمٌ.. وأحَبُّ أسفاري

في قلبِ مَن أهوَى

في صوتِ مَن أهوَى

في لمحةٍ تسقي بعطرِ الحُبِّ أشعاري

وتختصِرُ الدِّنانْ

هَيِّئْ لِيَ الأمواجَ يَنعَمْ بالطفولةِ

أنا قادمٌ..

لأكُونَ ضيفَكَ في دُبيٍّ يا كِنانْ!

دمشق: ١٩٨٢/١٠/٢٥

كانت هذه القصيدة رسول الزيارة التي سنقوم بها قريباً - أنا وهي - جدُّ كنانٍ وجدتُه إلى دبي، بعد أن عادت جدته لتوها من رحلة علمية إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

معن ابننا الطبيب الجراح يعمل في مستشفى الكويت بدبي منذ بضعة عشر عاماً.

يبدو أن الأُسرة الصغيرة استقرت في هذا الثغر المتفتح للحياة، والمنغمس في أحضان العصر، بروح من المجاذفة والانطلاق تدعو حقاً إلى الإعجاب.

وزيارة دبي تعني أسبوعين من الاستجمام والراحة ننفض بهما كل ما حملناه على أكتافنا المتعبَة من أعباء، وما أرهقنا به أعينَنا من قراءة وكتابة خلال عام.

في مطار دبي نجدُ كناناً حفيدنا بانتظارنا، يسبق أباه إلى عناقنا. وتنطلق بنا السيارة الصغيرة إلى البيت.

في البيت تحتشد «الثلَّة» الحلوة من منى إلى خديجة إلى مها إلى بسام.. إلى آخر فروع الشجرة التي انتقلت من دمشق إلى الخليج.

عصفورة البيت كِنْدة تثب فيما بيننا من قُبلةٍ إلى قبلةٍ.. ومن حُجْرٍ إلى حُجْرٍ.. العصفورة التي لا ترضى أن تنزل دَرَجاتها في المدرسة عن المئة:

مِئَــــةٌ مِئَــــةٌ فــــي دَفْتَرِهـــا

مِئَــــةً مِئَــــةً أخــــذَتْ كِنْـــدَةْ

أرأيــــتُم أذكــــى مــــن كِنْـــدَة؟

أرأيــــتم أحلَــــى مــــن كنـــدة؟

كان هذا مطلع النشيد الذي كتبه لها جَدُّها منذ فترة قريبة. ما أن تَلَّقته حتى حفظته، وطارت به إلى مدرستها «المواكب» تُنشده أمام المدير والمديرة والمعلمين والمعلمات ورفاق الصف ورفيقاته جميعاً.

الحفيدان الصغيران يُعِدَّان لنا برنامج الأسبوع الأول..

يتدخَّلُ أبواهما أحياناً «بتعديل» طفيف، لا يبدِّل من الأمر شيئاً.

نحن هنا لننفضَ عنا غبار عام من الكدح والعمل..

- إلى أين ستصحبين تيتا وجدو اليوم يا كندة؟

- إلى «النادي».. إلى البحر.. سنلعب هناك معاً، نقفز، ونجري، ونسبح، وتحضران المباراة التي سأقوم بها اليوم في «التنس» مع بعض رفاقي ورفيقاتي في المدرسة. ستكونان «فريق تشجيع» عظيم لي. ولا يمكن أن أخسر بوجودكما.

- إلى «النادي».. إلى البحر إذاً.. نقضي صباحاً ممتعاً مع الصغار.. ويلحق بنا بابا وماما عند الظهر.

نادي دبي البحري الذي تسبح فيه كندة وتقيم مُبارياتها فردوس حقيقي للصغار والكبار. لا تَرَفَ ولا أُبَّهةَ.. ولكنك واجدٌ في هذا الشاطئ الناعم الهادئ كل ما تحلمُ به من راحة ومتعة.

وشوشات الموج على قدميَّ. وأنا أُطالع صحيفتي وأسرح في الأفق البعيد من لحظة إلى لحظة..

كندة وجدَّتُها الرشيقة تجريان على الرمل، وتقذفان الكرة الملوَّنة منذ ساعة.

عند الظهر يعود ابننا معن وزوجته من العمل..

سنمضي بقية النهار مع وشوشات الموج ونسمة الشاطئ الناعمة.. وما شئنا من تسليات وألعاب.

* *

في المساء.. اهتف إلى الصديق الشاعر عبد العزيز إسماعيل. عبد العزيز يحفظ شعري، ويلقيه إلقاءً يكاد يكون غناءً.

منذ أكثر من ربع قرن..

كان طالباً يدرس في القاهرة عندما تلاقينا أول مرة،

في زمن الوحدة والوهج القومي، في أواخر الخمسينيات.

يرحِّب الصديق القديم بصديقه، وينبئه أن تلفزيون دبي الفضائي قد أذاع له لقاءً مطولاً منذ يومين، وأن الإخوة في التلفزيون يطمعون بلقاء جديد أطول وأمتع. وأن مجلة «الرياضة والشباب» تنتظر قدومك لتعقد معك حواراً يمتد ساعات. وأن «النادي العربي» في الشارقة لابد أن يستضيفك في أُمسية أدبية.. وأَنَّ..

وأُقاطع الصديق العزيز ضاحكاً:

جئت للراحة والاستجمام،

فأية راحة وأي استجمام ينتظرانني!

يجيب الصديق العزيز:

الكلمة التي ارتبطت بالناس لا تستطيع أن تُفْلِتَ من الناس.

وأُوافق: نعم، يا صديقي، لا تستطيع أن تُفْلِتَ.. ولا يجوز أن تُفْلِتَ.. ذلك كان قَدَرها.

وفي الأيام التالية.. أُلبِّي رغبات الإخوة والأصدقاء جميعاً في التلفزيون والمجلة والنادي، دون أن أُخِلَّ ببرنامج كندة وكنان.

* *

وتتصل أُمسياتُ السَّمَر..

أصدقاء معن كثر في دبي.. وهم في الوقت نفسه أصدقاؤنا.

وأقربُ الناس إلى الأنس والشعر والسَّمَر في هذا البلد إخوتنا اللبنانيون. إنهم نشاط دائب في النهار، ومَرَحٌ وبهجة في المساء، يُقِرُّ لهم بهذا كل من عرفهم.

السهرة اليوم في بيت الأستاذ نبيل، مدير «المواكب» والسيدة نزيهة زوجته.

تحت عريشة نقلاها من لبنان إلى الخليج.. نسهر على أغاني فيروز وأحاديث الفن والشعر والأدب، توشح هذا كله الفكاهة والدعابة ومقاطع الزَّجَل. ويفاجأُ السامرون بأن ضيفهم الشاعر زَجَّالٌ قديم:

مـدّي لـي إيـدكْ.. إيـدِكْ مـدي لـي

بعيونِــكْ كلمـــه عـــم بتنـــادي لـــي

عطشـانه كاسـي.. ومـا بتصـبّي لـي

حاشـرِبكْ انــتِ وعمــرا مــا تكونــا

علــــى دلعونـــــا.. علــــى دلعونـــــا!

- السهرة غداً عندنا يا أبا معن! ولابدَّ أن نكملْ الزَّجَل في بيتنا..
تؤكد السيدة «محاسن» دعوتها بإصرار، ويثنِّي زوجها شاعر الزَّجَل البارع الأخ نبوغ على الاقتراح.. ويوافق الحاضرون جميعاً على الموعد الشعري الغنائي المقتَرح.
يهمس أحد الحاضرين في أُذني:
لا معنى لسهرة بلا شعر ولا غناء..

* *

في الإمارات العربية، هذا البلد العربي الذي يملأ أطراف الربع الخالي بالحدائق والعمران والحياة رحنا نمضي إجازتنا، أنا والدكتورة، بين البحر والمدينة، ولقاء الأصدقاء.
بسَّام الشاب الذي يعتمده الجميع لتذليل المشكلات، وحلّ المعضلات، يُعِدُّ لنا اليوم مفاجأةً صغيرة، هذا ما علمتُه من معن.
- ركن هادئ في حديقة فندق من فنادق دبي الفخمة، ضُربت فيه خيمة عربية، نذهب إليه مساءً، بدعوة من بسام، حيث تفاجئك هناك «النرجيلة» صديقتك القديمة، وستجد نفسك في منأى عن كل المتاعب، تشردُ مع أنفاس «نرجيلتك» ما شئت من الوقت.
زَفَّ معن إليَّ النبأ، وكان بالفعل مفاجأةً سارة.
ومع الأنفاس الأولى من «نرجيلتي»، في الركن الهادئ، والخيمة المنعزلة أُفاجأ بصديق قديم من دمشق، يعمل في الصحافة..
- إنها فرصة من فرص العمل أن ألقى شاعرنا هنا.. أرجو ألاَّ تبخل عليَّ بحديث للصحيفة المعروفة التي أعمل بها، تحدد وقته متى شئت.
وسحبتُ نَفَساً عميقاً من «نرجيلتي» وأجبتُ الصديق:
هيِّئ قلمكَ ودفتركَ، وسأبدأُ الحديثَ الذي تريده على الفور.
الركنُ الهادئُ لا يستطيع أن يكون هادئاً يا بسام!

ويضحك معن:

الوالد وهَبَ نفسه للكلمة..

وليس عليه أن يتبرَّم أو يشكو.

وأُجيب:

ومتى رأيتني أتبرَّم أو أشكو.. يا ولد؟

*   *

أكثر من مرة.. هربنا من الصخب والضوضاء إلى الخيمة، إلى الركن الهادئ.. كانت أم معن أكثر شغفاً مني به. وكان من حسن حظنا أنَّا لم نفاجَأْ بأي صديق صحفي، يحب أن يغذِّي صحيفته بلقاء أدبي على حساب الهدوء وأنفاس «النرجيلة» في تلك الأماسيِّ الجميلة على شاطئ الخليج.

٩

العودة .. و «جناح غرناطة»

لـيسَ قَصْـراً فارعـاً هـذا الجَنَـاحْ

يَحْسِـرُ الأبصـارَ إنْ تزلَـقْ عليـهِ

لـيس دنيـا مـن دِمَقْـسٍ بـاهرٍ

تسـجدُ الفتنـةُ والنعمـى لديـهِ

هـو ركـنٌ.. يَتَشـهَّاه الصـباحْ

فـي فِنـاءِ الـدار، فـي ضِـلْع حديقَـةْ

هو للضيفِ..

نَزَلْناهُ.. رفيقاً ورفيقَةْ

ذاتَ يـومٍ.. وغَرِقْنَـا بالسـماحْ

بشـذا الليمـونِ.. مـن أنْـدَلُسِ

يَقْطَـرُ الضـوءَ بقلـب الغَلَـسِ

هـل درت غرناطـةٌ أنَّ لهـا

جـذوةً.. تُـومئُ لِلْمُقتـبسِ

خَبِّـئِ الـركنَ لِعُشَّـاقِ الصـباحْ

يـا أخـا الشـعرِ.. لنـا كـان الجَنَـاحْ

لِلرُّؤى.. لِلْمُتْعَبينْ..

زادُهُمْ في رحلةِ العمرِ..

ابْتهالاتُ نشيدٍ وحنينْ

*   *

الأماسيُّ الجميلة على شاطئ الخليج توشك أن تنتهي.
أوقات المتعة تمر بسرعة.
الصديق الحميم والأخ العزيز الدكتور راشد المبارك يُصِرُّ علينا ـ هاتفاً إثْر هاتف ـ أن نمر به في زيارة للرياض.. في طريق العودة.
«لك أصدقاء، وإخوة قُدامى، ومُحِبُّون كثيرون يا أبا معن.. يريدون أن يروك. بعضُهم قال لي: إنه يحلُم أن يراك».
لم أعرفِ الغرور في حياتي، أخجل منه، أعدُّه آفةَ الكلمة الجميلة والحلم الجميل، آفتهما الأولى.
ومع ذلك تطفر الدمعةُ في عيني عندما يشاطرني قلب نبضَهُ، وأنا في الثالثة والسبعين.
بإيجاز.. أُلبِّي الدعوة الحميمة أنا وزوجتي الدكتورة التي كانت تخشى أن تتأخر عن موعد بدء الفصل الدراسي الثاني، وبدء المحاضرات، ولو يوماً أو يومين.
نحن الآن في بيت الأخ العزيز، والصديق الحميم الدكتور راشد.
في زاوية من حديقة المنزل الهادئ يقوم ركن جميل منعزل، أَعدَّه الصديق أبو بسام لضيوفه المقرَّبين، الذين اصطفاهم وخصَّهم بمكانة في نفسه تدنو من مكانة الأهل والولد.
في ذلك الركن الهادئ الجميل نزلنا أنا وأُم معن.
وما كدنا نستقر في الجناح الذي سميته «جناح غرناطة» ـ لا أدري لماذا؟ ـ حتى أخذنا نحس أنا أصبحنا جزءاً من البيت الكريم، والأُسرة العزيزة.
الفنادق الفخمة المريحة كثيرة في الرياض..
ولكن «جناح غرناطة» أجمل وأقرب إلى القلب منها جميعاً.
أبو بسام صديق قديم، يستطيع أن يظفر بك حيثما كنت. مثالٌ نادر للوفاء، في زمن نَدَر فيه هذا الذي امتلأت به قصص الأجداد: الوفاء.
أُستاذ يحمل أعلى اختصاص في الكيمياء الحديثة، من جامعات الغرب، ولكنه إلى ذلك شاعر أصيل، انظر ديوانه البديع «رسالة إلى ولاَّدة»، وقارئٌ مُجيد للفلسفة، وذاكرة عجيبة في حفظ الشعر العربي وروايته، قديمه وحديثه على السواء.

لكَ في جَنَاحي خفقةٌ يا شاعري

سَبَحاتُها بين النجوم شواردُ

إني لأبْحثُ عن ينابيعي التي

أبَتِ الرحيلَ.. وأنتَ منها واحدُ

وتغيبُ في الحَلَكِ الرهيبِ سماؤُنا
وتَظَلُّ في كفي الخضيبِ فراقدُ
ويجيءُ صوتُكَ مِلْؤُهُ شَجَنُ الهوى
هَمٌّ يُطارِدُنا معاً.. ونُطارِدُ[٥]

على الشرفة البيضاء التي تُطل على الحديقة، نتناول فنجان القهوة صباحاً، ويحدثني عن البرنامج الذي أَعدَّه للزيارة.

دعوات من الإخوة الأحبَّاء في هذا البلد الذي يفوح بروائح الأجداد، وشميم العَرَار القديم.. تنتظرني على امتداد الأسبوع. ولكن هل أستطيع أن أقضي أسبوعاً كاملاً هنا؟ لابدَّ من الاختيار يا أبا بسام..

دعنا نبدأ نهارنا اليوم بجولة في البلد، جولة خاطفة في المدينة التي اقتحمت الرمال، وحولتها إلى شوارع رحيبة، تشع نظافةً، وحدائق تملأ عينيك بالخضرة والجمال حيثما تحركت.

الرياض.. كنت أتخيلها قطعةً من الصحراء، فإذا هي قطعة من الأناقة والجمال، على امتداد نيّفٍ وخمسين ميلاً.

ويطوف بنا أبو بسام بسرعة من الجامعة، إلى مستشفى العيون، إلى السوق التجاري، إلى الحي الدبلوماسي الذي ضاع بين العرائش والأشجار.. ونعود لِنُعِدَّ أنفسنا لندوة المساء التي ستُعقد اليوم في بيت الشاعر الصديق، احتفاءً بضيفه الذي ينتظر الأصدقاءُ لقاءه، وينتظر هو لقاءهم بدوره.

وندوةُ المساء.. اسمها «ندوةُ الأحد».

منذ خمسة عشر عاماً.. يقيم أبو بسام «ندوة الأحد» في بيته، يتلاقى فيها المثقفون من كل المشارب، من أرجاء الوطن العربي كله، يُحاضرون، ويتناقشون، ويبحثون في شتى صنوف المعرفة: الأدب والفن والتاريخ والاجتماع والفلسفة والعلوم.. ويكون للشعر في معظم الأحيان نصيب وافٍ في هذه الأُمسيات. ألسنا أُمةً شاعرة؟ أليس ربُّ الدار نفسه شاعراً، وراوية للشعر؟

الندوة تُسجَّل كلها وتُوثَّق.. الشاب عبد العزيز نجل الدكتور يدير جهاز التصوير ويسجل ببراعة كل شاردة وواردة.

ومن أراد أن يرجع إلى هذه «الموسوعة» الثقافية يوماً فإنه واجدٌ فيها ما يَرْفُده ويُغْنيه.

الساعة الثامنة مساءً..

---

(٥) من قصيدة: خذني إلى الشجن الحميم. الأعمال الشعرية، المجلد الرابع، ص ٥١٨.

الصالة الكبرى في الدار تغص بالضيوف.

أُدباء وشعراء وأساتذة جامعيون ونُقاد ورجال فكر، وصحفيون.. يحتشدون في الصالة الرحبة، ويبدأ أبو بسام الحديث، ويتوالى المتحدثون. وتُنْشَد القصائد الجميلة.. ويأتي دور المحتفى به، دوري أنا..

الإخوة الحاضرون يريدون أن أروي لهم شيئاً عن طفولتي، عن حياتي، عن تجربتي الشعرية التي امتزجت بتجارب النضال العربي، وكانت - في رأيهم - صداه وكلمته المشتعلة على امتداد نصف قرن.

واتحدث بإيجاز، وأُعيد على مسامع الإخوة الحاضرين أني لست سوى خلية في جسد عربي، تبحث عن ملايين الخلايا من أخواتها لكي يتحرك الجـ مدنٌ وَأسفار ـ م ٤
الحياة.

رأي قلته غير مرة.. وسجلته فيما كتبتُ وسجلتُ غير مرة..

وأُنشد بعض قصائدي الجديدة.. في الأُمسية.

وأقف عند تجربتي التي أحبها وأوثرها على نتاجي كله: وهي شعر الأطفال الذي جعلته همي الأول منذ زمن بعيد.

ويوافقني الحضور - معظمهم على الأقل - على انصرافي لأدب الأطفال وشعر الأطفال. إنهم النُّسْغُ الحي الذي يجددنا، ويمد جذورنا في الأرض في كل لحظة.

في الحادية عشرة مساءً تنفَضُّ الأُمسية..

أحس في أعماقي أني قد ظفرت اليوم بزادٍ ثمين.

«ندوة الأحد» يا أبا بسام زادٌ - بالفعل - ثمين.

طابت ليلتُك!
وإلى ركننا الهادئ الأثير..
«جناح غرناطة».

١٠

في العالم الجديد

قَـــــرَّرتْ تكريمَنــــــا أمُّ عُمَـــــرْ

فاســتحقَّتْ عنــدنا إحــدى الــدُّررْ

صــــنعتْ لـــي يـــا أخـــي طاقيـــةً

طِبْـقَ رأسـي.. صـوفُها أعْلـى الـوَبَرْ
شـــــغَلتْها عـــــن أمـــورٍ جَمَّــــةٍ
قَـــدْرَ أســـبوعينِ.. والفـــنُّ سَـــهَرْ

كنتُ أسترجعُ هذه الأبياتَ الضاحكة في ذاكرتي وأضحك، وأنا على مقعدِ الطائرة التي تُقِلُّني من مونتريال، والتي توشك أن تهبطَ بي أنا وزوجتي في مطار واشنطن القديم، ليتلقّانا هناكَ أصدقاؤنا الأعزاء الذين ينتظروننا منذ أسبوعين، وفي مقدمتهم أبو عمر وأم عمر.

ما أظنُّ شيئاً في الدنيا أمتعَ ولا أجملَ من استقبال حبيبٍ أو صديق في مطار.

الأبياتُ الضاحكة[٦] التي افتتحتُ بها هذا الحديث كانت من دُعَابةٍ شعرية طويلة، أهديتُها إلى الأُخت العزيزة أُم عمر ذاتَ يوم حين تبرَّعَتْ بنسجِ «طاقيةٍ من الصوف» للشاعر في دمشق، تقي رأسَه البرد، وهو لا يخاف شيئاً كالبَرْدِ.

وها أنذا أزورُ واشنطن أنا والدكتورة أُم معن، بعد بضعة عشر عاماً من تاريخ «الطاقية»، لننزلَ ضيفين على الصديقين القديمين في بيتهما الصغير الأليف الذي يحتلُّ إحدى الزوايا الهادئة في «ألكسندريا»، بالقرب من واشنطن العاصمة، ونستعيد قديم الذكريات.

وما نكاد نُلقي أمتعتنا حتى ينهمكَ العزيزان أبو عمر وأُم عمر بإعداد البرنامج الحافل الذي سيملأان به الأسبوع الذي سنقضيه عندهما.

لابدَّ من يوم كامل لزيارة المتاحف في العاصمة..

ويوم آخر نمضيه في جبال (الأبالاش) غير البعيدة من واشنطن، والتي ما تزال عامرةً ببقايا إخوتنا «الهنود» الحمر، يحرسون الجبال، وينسجون السلال.

ويوم لزيارة مدينة نيويورك التي تدوِّخ رأسَ الزائر، والزائر المقصود هنا هو أنا الذي دخلتُ المدينةَ الهائلة قبيل الظهر، ولا أدري كيف خرجتُ منها قبيل الغروب، وكأني أخرج من «نَفَق» رهيب، يُطبق عليَّ بأبنيته الشاهقة من كل مكان، بالرغم من أن الدكتورة زوجتي تحبها، وتحمل لها أطيب الذكرى، حين أمضت فيها قُرابة أسبوع منذ أعوام.

قالت أُم عمر:

لا داعيَ للشكوى من نيويورك، والضيق بها يا أبا معن! سنصحبكم صباح غدٍ إلى نزهة رائعة تأخذ علينا يومنا كلَّه. سنذهبُ جميعاً إلى «شاطئ فرجينيا»، حيث البحرُ والرمال الناعمة والشمس، وما لذَّ وطاب من المُتَع الصغيرة. يومُ غدٍ للشعر والهواء الطلق، فَلْنَخلُدْ إلى النوم مبكرين اليوم، وَلْنَستعِدَّ لرحلة الصباح. أبو عمر سائق ماهر، وهو لا يُخفي وَلَعه بمثل هذه الرحلات.

---

(٦) انظر الديوان الضاحك، الطبعة الثالثة، ص١٤٤.

وفي صباح اليوم التالي كنا على الطريق العريض، ترافقُنا غابات الشجر من كل لون، ونحن نخترقُ المدى الزاخر بالشعر والجمال، زُهاءَ أربع ساعات أو خمس، إلى أن وجدنا أنفسَنا فجأةً في وسط مياه المحيط.

السيارةُ الصغيرةُ تجتاز بنا الجسر الذي ينتصبُ صامتاً وحيداً في قلب المحيط، أشبهَ بشعاع نقيٍّ أبيض تجمَّدَ فوق الماء، وراح يخترقه في هدوءٍ ميلاً بعد ميلٍ، مرةً يعلو فوق البحر، ومرة يهبطُ تحت الماء، ثم ما يلبثُ أن يصعدَ إلى السطح مرةً أُخرى. إنه جسر «شيزابيكه» الذي يصل بين بقعتين من اليابسة يفصلهما المحيط على امتداد عشرات الأميال.

وتضحكُ أُم معن وأنا أُبدي دهشتي من الجسر الذي يتحدَّى المحيط، وينسابُ فيه وديعاً ناعماً كالحُلُم الجميل، قائلةً:

لقد أُتيح لي خلال زيارتي لهذه البلاد في ندوة علمية، قبل سنواتٍ خلت، أن أرى جسوراً فيها أطولَ وأعجبَ من هذا الذي تراه بكثير.

قلت: إنه العالَم الجديد الذي يحاولُ أن يطير بدلاً من أن يمشي، وقد آنَ لنا أن نتعلم كيف نمشي، إذا لم نستطع الطيران.

ووصلنا «شاطئ فرجينيا» الجميل، وأمضينا على رماله الذهبية ساعات ستبقى في الذاكرة حيةً نضيرة إلى أمد بعيد.

رماله الذهبية ليست بالتأكيد أنعمَ ولا أجملَ من رمالنا على شواطئ اللاذقية أو طرطوس أو الإسكندرية أو تونس، ولكنها بالتأكيد خاليةٌ من كل «المنغِّصات» التي لا تتم متعتُنا إلا بها في بلادنا الجميلة، فلم يثقب أُذني مثلاً صوت مذياع يَجْأَر[٧] بأعلى طاقةٍ يملكها على قيد أمتار مني وأنا أتأمَّل جمال الغروب.

مع الغروب.. قفلنا عائدين إلى البيت الصغير الأليف، لنبلغَه قبيلَ منتصفِ الليل، ولم ننسَ أن نحمل معنا بعضَ «التذكارات» الصغيرة الأنيقة من حانوتٍ لبيع الهدايا يقبع في منتصف الجسر العجيب الذي عَبَرناه. تستيقظُ سونا، وينهض أخوها عمر من النوم لاستقبالنا في منتصف الليل. لم يستطع الشابان مرافقتنا إلى رمال فرجينيا الناعمة. انشغالهما بدراستهما العالية حال دون ذلك. نعدُ الصبيَّةَ الحلوة وأخاها بنزهة أمتع وأحلى في أقرب فرصة تُتاح لنا.

* *

منذُ الصباح الباكر يرنُّ جرسُ الهاتف في حُجرتنا، إنها ابنتُنا الدكتورة بادية، تريد أن تطمئنَّ علينا، وتعرفَ شيئاً عن رحلتنا الجديدة إلى البلد الجار الكبير.

يصلنا صوتها مع أنفاس الصباح الأُولى، وأُغنية فيروز الشجية تترقرق من إحدى الإذاعات:

---

(٧) العامة تقول: يَجْعَر بالعين، ولعلها الأَدَقُّ هنا.

لمــا عالبــاب يــا حبيبــي.. منتــودَّعْ
بيكـون الضـو بعـدو شـي عـم يطلـعْ

ابنتنا تقيم هي وأُسرتُها الصغيرة في مونتريال منذُ سنوات، وقد حرصنا أن نوفر كل قرش نستطيع توفيره من عملنا لكي نزورها، ونزور أخاها الذي يقيم في كندا أيضاً. ثُلثا الأُسرة تعيش في كندا. إنها الهجرةُ التي امتدت إلى بيوتٍ لا تُحصى في الوطن، وانتزعت منها زهرة شبابها، سعياً وراء التحصيل والعمل والمستقبل الأفضل، كما تصوَّر المغتربون جميعاً من أهلنا وأبنائنا منذ القرن الماضي.

الوطن الأُم يفقد رعيلاً إثْر رعيل من خيرة أبنائه، ليتلَقَّفهم العالم، ويضيف إلى ثرواته ثروةً جديدة من الطاقات والإمكانات نحن بأشدِّ الحاجة إليها.

مُعْضِلة لم نتصدَّ لحلها، بل إننا لم نفكر بمثل هذا الحل في يوم من الأيام فيما أظن.

نطمئنُ بادية على الهاتف أننا بخير، وأن البلاد التي نزورها بلاد جميلة رائعة، مع كل ما فيها من صَخَب وتعب، وسُرعة ولهاث.

أستعيد في خاطري بلمحةٍ الأسبوعين الجميلين اللذين قضيناهما مع بادية وأُسرتها في كندا.

ابنتنا أُستاذة في جامعة «ماك جيل» ـ قسم الباتولوجيا ـ كما سبق أن ذكرتُ، وهي في الوقت نفسه تقضي ما يسمونه «خدمة الريف» في مدينة صغيرة في الشمال، اسمها وادي الذهب: Vald'or.

ولقد أصرَّت أن تصحبنا هذه المرة إلى مقر عملها الريفي، إلى «وادي الذهب»، في أقصى الشمال. لنمضي هناك، مع الأولاد جميعاً، أسبوعاً كالخيال على شاطئ بحيرة «بلووان» التي تكاد تؤلف ممراً مائياً بين الشمال والجنوب.

زميل بادية، الطبيب الجرَّاح الدكتور «ماتش» يتبرَّع لنا ببيته الريفي الجميل الذي يُطلُّ على البحيرة كما يُطلُّ الحلمُ على الهدب، نُقيم فيه ما نشاء.

وصهرنا فائز، الشاب الجزائري، المهندس والرسام الذي يُبدع في الرسم والتصميم الهندسي، ولكنه في الوقت نفسه يُبدع أيضاً في ما شئتَ من ألوان الطعام. إنه رسام وطاهٍ يَفْتَنُّ في الميدانين كلَيْهما، ويتركُ لذوقه الرفيع أن يُتحفنا كل يوم بما نختارُ من ألوان الشواء والغذاء، دون أن يدعَ لأي منا مجالاً للتدخل في شؤونه هذه، بالرغم من إصرارنا على أننا يمكن أن نكون معاونين نافعين.

مائدةُ فائز لا تقلُّ أناقةً وجمالاً عن تصميماته ولوحاته. شهادةٌ ليس فيها أيُّ انحياز.

وأحلى ما على المائدة الطفلة ليلى، حفيدتنا التي تحمل الزهرةَ الثانية من عمرها في يدها. قلت عنها في مكان آخر: إنها أجمل طفلة يمكن أن تقع عليها عين. وما زلت عند قولي.

على كرسيّها الخاص بالأطفال تحتلُّ رأس المائدة، وتأخذ بتناول طعامها. أمها لا

تريد أن يساعدها أحد لِتتدرَّبِ الصغيرةُ على حل مشكلاتها بنفسها منذ الآن.
وتبدو الطفلة سعيدة بهذه النظرة التربوية.
هي ذي تعبث بصحن الطعام أمامها، فتقلبه رأساً على عقب، ثم تتناول بأصابعها الحلوة ما يروق لها من طعامها الذي تبعثر أمامها. تضحك أمها قائلةً: بعد قليل لا تلبثُ أن تضع الصحن الفارغ على رأسها قُبَّعَةً.
أُعلّق أنا مازحاً:
مسكين جان جاك روسو، صاحب كتاب «إميل»، وفيلسوف التربية الفطرية الأول. لقد تركته ليلى وراءها.
تقودها أمها إلى الحمام مباشرةً بعد المائدة. أما أبوها فيهمس في أذني ضاحكاً: بيني وبينك.. أتمنى لو أتناول طعامي مثلها!
في زيارة سابقة صحبتنا بادية إلى أماكن غير بعيدة، عامرة بالهدوء والشاعرية، في منطقة «اللورنتيد». ولقد سجلتُ في إحدى البقع قصيدةً من قصائد النثر بعنوان: «أغنية في ميرامون»، يجدها القارئ في كتابي: «على طريق العمر»، وقد نقلها إلى الفرنسية الشاعر الفرنسي الصديق أتانازفاتشيف دوتراسي.
* *
العالم الجديد الذي أزوره كان جديداً بالفعل في كل شيء. والذي فاجأني في أمريكا بالذات ذلك التباين الذي يبلغ حدَّ التضاد بين طيبة الشعب العاديّ هنا، وبراءته وغفلته عما يجري في معظم أرجاء العالم، وبين سياسة حكامه التي تحاول بأي ثمن أن تمدَّ ظلَّها، وتفرض سلطانها على هذا الكوكب غير عابئةٍ بشيء.
العالم الجديد بدا لي جميلاً بالرغم من كل شيء.
ولكن أجمل ما فيه ـ هل تصدقونني؟ ـ كان لقائي بعضَ الأصدقاء القدامى الذين حملوا عصا التَّرحال، واستقروا في المهجر منذ أعوام طِوال.
كان خيطٌ من الحنين العميق البعيد يتصلُ فيما بيننا، يربطُ الفروعَ بالجذور، ويردُّنا إلى منابتنا الأُولى في كل لقاء.
ومن الصعب أن أنسى الأمسية الحاشدة التي أصرت الجالية العربية في مونتريال أن أكون ضيفها فيها ذات يوم، وأن أنشد فيها مقاطع من شعري. لقد كانت أكثر من لقاء بين شاعر وجمهور مغترب. كان لقاء الأرض بصوت يحمل إليها رائحة الأرض التي نأت عنها، وما زالت تحملها في العروق والأعصاب.
* *
العالم الجديد بدا لي جميلاً ومدهشاً، دون أن يخلعني من جلدي.
سؤال طفولي يراودني كلما زرتُ بلداً متقدماً:
متى نستطيع أن نجعل من وطننا العربي الكبير وطناً جديداً، ومتقدماً، وجميلاً في كل شيء؟
ثم ما ألبثُ أن أُردِّد مع شاعرنا أبي الطيب المتنبي:

ولـــم أرَ فـــي عيـــوبِ النـــاس عيبـــاً

كـــنقصِ القـــادرين علـــى التمـــامِ

* * *

خيوط.. من الذكرى

١

القاعة الكبرى في جامعة صنعاء.. تَغَصُّ بالناس.

جمهور من الكتّاب والأدباء والمثقفين والشباب من كل الأوساط احتشَدَ في تلك الأُمسية الحافلة التي كانت إحدى حفلتيّ الختام، لمهرجان الشعر الخامس عشر الذي أقامه «اتحاد الأُدباء والكتّاب العرب»، في مطلع كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٨١.

بدأ المهرجان في عدن..

وانتهى في صنعاء..

وقد أردناه جميعاً كذلك.. أَنْ يَشُدَّ اليمنَ ـ المهد كلَّه في كلمة يقولها أبناؤه العرب.. متجاوزاً بل متجاهلاً ما كان يُعرف بالتشطير، والشمال والجنوب آنذاك.

وكان إخوتنا، أُدباء اليمن وكتَّابه يُصرون على ذلك.. ولا يعترفون ببضعة أحجار، وبراميل فارغة، تشطر الأرض والتاريخ.. تشطر الجسد اليمني الواحد إلى شطرين.. إلى دولتين.

ما أذكر أني اشتعلت مع جمهور. واشتعل معي ـ على امتداد عقود من العمر ـ كما حدث لي، وأنا أُلقي قصيدتي في ذلك الحفل المهيب:

ماذا من الشهقةِ الحمراء أَخْتزِنُ؟

أمشي، وتنأَيْنَ يا صنعاء.. يا عدنُ!

تَقصَّفَ العمرُ.. في جفني وفي شفتي

وما تزالُ وراءَ الدمعةِ اليمنُ

وتنعقد أنفاسُ الجمهور على القافية العربية. ـ إرْثٌ قديم ـ..

وأُحسُّ أنا لفحَ تلك الأنفاس وحرارتها في كل شطر، في كل كلمة أقولها. إنه الجوهر العربي النقي الذي تذوب فيه كل التناقضات، والأوهام، والأباطيل، حين نستطيع أن نمسه، ونصل إليه في لحظة من اللحظات. وكنت أشعر أني وجميع من ضمتهم القاعة الضخمة قد مسنا هذا «الجوهر».. ووصلنا إليه.

وأصلُ إلى شاطئ قصيدتي مُتْعَباً.. ولكن دون أن تَضْعُف النبرةُ أو تتراجع. لقد كانت العيون المشدودة إليَّ في القاعة تمدني بأشعة لا حدود لنفاذها، وبأسها، وقوتها. كنت أشعر أني أنا كل الحاضرين.. وأن الحاضرين كلهم أنا.

ما أجملَ اللحظةَ! وما أروع الشرارة المقدسة حين تلامس الأعماق، وتصل بينك

وبين الناس!

لقد كانت مثل هذه اللحظات - اعترف ببساطة - أثمن وأجمل ما مرَّ في حياتي.

واختم القصيدة بهذه الغيمة الحزينة:

بعيدةٌ عَتَباتُ الحُلْم.. يا وطني
صحراءُ.. يلهثُ فيها الفكرُ والظَنَنُ
بعيدةٌ.. أتَقَرَّاها بما تركتْ
ليَ السنونَ.. وما أبقى ليَ الزمنُ
ارتدُّ طفلاً.. أدقُّ الصخرَ منتظراً
صحوَ الينابيعِ.. يبكي قبضتي الوَهَنُ
إنـي أصِرُّ على رؤيا تُمزِّقني
كلُّ القَرابينِ في نيرانها امتُحِنوا
عَفْوَ الغناءِ.. وعَفْوَ الشعر.. أعشقُهُ
هذا العِنَادَ..
معاً.. في النَّزْعِ نقترنُ!

«ديوان اليمن ص ٦٧ وما بعدها»

وتنتهي الأُمسيةُ الحاشدة..

ونخرج جميعاً إلى الفندق للراحة قليلاً.. بعد عناء يوم من السفر.. والاحتفال.. واللقاءات..

وما أكادُ أصلُ الفندق حتى يدنو مني شاب من إخوتنا اليمنيين ليقول لي:

الدكتور عبد العزيز المقالح هنا.. يريد أن يراك..

ويرنُّ الاسم في أذني.. وتلمع في خاطري ذكرى قريبة.. ذكرى مقال قرأته لهذا الشاعر والكاتب اليمني الذي يلفت النظر بجده ورصانته وبُعد نظرته.. مقال ظهر في مجلة «الموقف الأدبي» التي نصدرها في دمشق، يتحدث عن أدب الأطفال. وكانت المجلة قد أعدت مِلَفّاً خاصاً في أحد أعدادها عن أدب الأطفال فيما أذكر. وأشهد أني لم أقرأ مقالاً أرصن ولا أجمل من ذلك المقال. وقد شاء أن يكرمني فيذكر اسمي بين الذين يكتبون للأطفال، ويولون هذا الموضوع ما يستحق من جهد واهتمام.

وها نحن أولاءِ نلتقي في صنعاء.. هذه المدينة العربية التي سأقول فيها بعد أعوام:

تُحِبُّها؟ وشوشوني، والتصقتُ بها

شـعثاءُ مـن سَـفَرِ التـاريخ غبـراءُ

مَـنْ مـنكمُ لـم يجـد فيهـا طفولتَـه

وتخترقْـه - ولـو لـم يـدرِ - صـنعاءُ؟

وأمضـي مـع الشـاب الـذي دعـاني إلـى لقـاء الـدكتور عبـد العزيـز المقـالح الـذي كـان ينتظرني على مقعد منزوٍ في ركن من أركان الفندق، بعيداً عن الصـالة الفخمـة، وعـن ضوضاء الناس.

ونتلاقى أولَ مرة.. ونتصافح.. ثم آخذ مكاني إلى جانبه على المقعد المنزوي، بعيداً عن الضوضاء، وأشعر منذ اللحظات الأُولى أني أمام إنسان أعرفه ويعرفني منذ أمد بعيدٍ.

كان صوته خفيضاً، هادئاً، حميماً كعادته دائماً.. وأُسارع فأعترف أني لا أملك هذا الهدوء، ولا هذه الكلمة الخافتة التي تحمل إليك طاقةً غير محدودة من الأُلفة والمحبة وهي لا تكاد تصل إليك إلا همساً. لا أذكر ماذا قال، وماذا قلت في ذلك اللقاء الخاطف. ولكني لا أنسى أن عبد العزيز أَصرَّ في ختام الحديث على هذه العبارة:

- لابد أن نراك في المستقبل.. لابد أن نراك أكثر من مرة في اليمن.

ثم افترقنا.. ولم يجمع بيننا غير هذا اللقاء العابر في ذلك المهرجان.

٢

يـا بْنَـةَ الأغنيـةِ البِكْـرِ، ويـا ظِئْـرَ

قـادمٌ.. اعتصـرُ الجـرحَ عتيقـاً فـي

مرةً أكتبهُ شعراً.. وأهْوِي ألفَ مرة

فوقه ميتاً..

واستنفرُ جلدي وكياني

وكمن ينفضُ عن عينيه سكرة

من غبارِ القبر انْهَضْ

واقفاً.. عيني بعين الشمسِ.. انهَضْ

يائسـاً.. العـقُ يأسـي فـي الشـرايين،

وألَبِّي دعوةَ الأسطورة الأولى، وآتي

احملُ الأطفالَ..

زادي، فرحتي البِكْرَ، وآتي
آه، يا صنعاء، يا أماه، قولي.. ما
أوقظَ الآنَ.. وأهدِيهِ إلى عينيكِ
ما عساني!

«ديوان اليمن ص٧٦ وما بعدها»

في القاعة الكبرى نفسها.. وعلى المنبر ذاته.. في جامعة صنعاء، كنت أُلقي هذه القصيدة الجديدة، بعد أن لبيت الدعوة، دعوة صديقي الدكتور عبد العزيز المقالح، مدير جامعة صنعاء.

كان الجمهور أقل عدداً بكثير من المرة السابقة التي وقفت فيها على المنبر ذاته قبل عامين. ولكنهم جاؤوا هذه المرة ليستمعوا لي، ويتعرفوا عن كثب الصوتَ الذي سمعوه من قبل، وربما قرؤوه وعرفوه من بعيد.

كان صديقي الشاعر العربي المبدع، مدير الجامعة، قد دعاني أنا وزوجتي الدكتورة ملكة أبيض هذه المرة.. هي لتحاضر في كلية التربية بصنعاء أُستاذةً زائرة.. وأنا لأتحدث إلى إخوتي وأصدقائي هنا.. وأتعرف اليمنَ بهدوء.. ومن دون ضجيج ومهرجان..

مرة أُخرى.. اللغة الحميمة الوديعة نفسها.. والهدوء الذي يشدك بقوة إلى اكتناه أسراره، إلى الارتباط بهذه الأسرار، من دون كلفة ولا اصطناع.

مرةً أُخرى.. كنا مع هذا الشاعر العربي الذي عرف كيف يقيم المعادلة الصعبة في حياته وأدبه على السواء: الأصالة والمعاصرة.

يمني.. حتى العظم..

ولكنه في اللحظة نفسها.. عربي حتى آخر ذرة تراب في وطننا الكبير..

وإنسانيٌّ.. حتى آخر نبضة حب، وعناق للعالم، حيثما وُجد الحب.. وأينما كانت الإنسانية.

في اليوم الثاني من وصولنا إلى صنعاء.. يهيّئ لنا برنامجاً لزيارة بعض معالم هذا البلد العربي، الزاخر بالتاريخ والأسرار والجمال.

يأخذنا هو بنفسه إلى ضواحي صنعاء..

نزور معاً «وادي ضهر».. ونقف معه على شرفات الصخر العالية، لنرى الوادي الرائع، ينبسط أمامنا حتى الأُفق، ويعرض علينا لوحات من الطبيعة ما أذكر أني رأيت أغنى ولا أجمل ولا أشدَّ تنوعاً وغرابةً منها في كل ما رأيت في حياتي. «وادي ضهر» ما يزال قصيدة تستعصي على الشعر.. تستعصي عليَّ أنا ـ على الأقل ـ حتى الآن..

في يوم آخر.. يأخذنا إلى الجبال القريبة من صنعاء.. باتجاه الغرب مرة، والشرق مرة أُخرى. وفي كل مرة كنا نشعر أن الشاعر الصديق الدكتور عبد العزيز كان حريصاً

كل الحرص على أن يمتعنا بمشاهد من اليمن، وكأنه يريد أن يقول:

هذا بلدكم العربي.. هذا هو اليمن الذي خرج من ظلام المقابر.. وشحوب الزمن، حاملاً على ظهره كل تاريخ الحضارة، وكل آلام الإنسانية، إلى جانب هذه الطبيعة الخلاّبة الآسرة.. وهو الآن مصمم على أن يلحق بركب الحياة، وينفض عنه ظلام المقابر، وشحوب الزمن.. مهما كان الثمن.

ثم يقترح في يوم آخر أن نسافر لزيارة «مأرب»، وسدها العظيم ونقف أمام السد العظيم، وأمام أعمدة عرش بلقيس. وأكتب أكثر من قصيدة.. من وحي تلك الزيارة.. أنشرها في الصحف العربية، وفي صحف اليمن، قبل أن تنشر في مجموعاتي الشعرية.. وقبل أن أُفكر بجمعها في ديوان خاص، سيحمل فيما بعد اسم «ديوان اليمن».

وما نكاد نعود من «مأرب».. حاملين معنا أَرَج التاريخ، وغبار الطريق، حتى يقترح علينا زيارة لحجة، ثم لتعز.. ثم للحديدة.. وزَبيد...

لابد أن نرى ونعرف أقصى ما نستطيع أن نرى ونعرف عن مهد الآباء والأجداد.. ولو كان ذلك خلال فترة قصيرة محدودة لا تتجاوز الأسبوعين.

وتنتهي الزيارة.. ونعود - أنا وزوجتي - إلى دمشق، ونحن نحمل معنا زاداً من الذكريات والصور والمشاعر الجميلة، تجعلنا نحس أننا قد بدأنا نعرف هذا الجزء من وطننا الكبير، الذي يتصل بالعرب كلهم، ويمشي في حنايا الأرض العربية كلها عبر العصور.

سلامٌ على مهدنا الأوَّلِ
على اليمنِ المُشرقِ المُقْبِلِ
على كل شامخةٍ في السماءِ
تلوحُ كقادمةِ الأجْدَلِ
سلامٌ على كل وادٍ يمورُ
بأسرار تاريخنا المُوغِلِ
سلامٌ على نسمةٍ في «تَعِزَّ»
فتحنا لها الصدرَ.. فَلْتَدخُلِ
سلامٌ على «حَجَّةٍ» في المدى
وفندقها.. شاخصاً من علِ
سلامٌ على موطن الخالدين

سـلامٌ علـى العَبَـقِ الأول
تُـرابٌ.. تشـبَّثَ شـعري بـه
وأمسـي، ويـومي، ومسـتقبلي
سـلامٌ علـى كـل آلامنـا
علـى كـل ظهـرٍ بهـا مُثْقَـلِ!

«ديوان اليمن ص٨٩ وما بعدها».

٣

وتتوالى زياراتي لليمن..
وتتوالى قصائدي فيها..
وأشعر أني أصبحت موزعاً بين لؤلؤتَيْ التاريخ العربي العريقتين.. دمشق وصنعاء.
وكانت قمة هذه الزيارات «ندوة الانتفاضة».. التي جمعت في صنعاء، ذات يوم، أهم حشد من أعلام الفكر والفن والأدب في العالم العربي، لنصرة أبطالنا، أطفال الحجارة، في أرضنا المحتلة المقاتلة. وكان لي شرف المشاركة فيها.
وأشهد أن عبد العزيز المقالح كان - مع قلة من الأصدقاء الغُيُر المتحمسين - وراء كل نشاط ثقافي وأدبي خلال الأعوام العشرة الماضية، حتى غدت جامعة صنعاء - بشهادة الجميع - منارةً تستقطب أهم المواهب، وأبرز العقول الخصبة الواعية في الوطن العربي، وفي البلدان الأجنبية الصديقة.
لقاءات باستمرار بين صنعاء وبين أدباء العرب وشعرائهم ومفكريهم على اختلاف المشارب والنزعات والأهواء..
ولقاءات مع الشعراء الأجانب..
مرةً.. مع شعراء فرنسا..
وأُخرى.. مع شعراء أسبانيا..
وثالثة.. مع شعراء ألمانيا.. في هذا العام.
وفي ذهن الصديق العزيز مشروع ثقافي كبير، ربما لا يعرف هو نفسه أين ينتهي؟ ولكنه يحاول، كما يُخيَّل إليّ، أن يثأر فيه لصنعاء من عصور الحرمان والجهل والعبودية التي عانى منها اليمن ما لم يعانه بلد في الدنيا.. وأنا على ثقة مما أقول.
ويطول الحديث.. لو شئت أن استعرض هذا النشاط الثقافي المضيء الذي عرفته صنعاء خلال الأعوام القليلة الماضية، وحاولت أن تحرق فيه المراحل- على حد تعبير الدكتور عبد العزيز نفسه - وتعوض بعض

ما فاتها من أشعة النهار، وأنسام الحياة.
ولابد لي من وقفة استراحة عند «المقيل».. مقيل عبد العزيز المقالح الذي تعوّد أن يجمعنا فيه مع نفر من خيرة الأصدقاء والأخوة الأحبَّاء في اليمن العزيز بعد الظهر من كل أسبوع، وأن يدعو إليه كل من تصادَفَ وجوده في صنعاء من إخوتنا المثقفين والأُدباء والأساتذة من شتى أقطار العروبة.
وكنت - وما زلت - حريصاً على ألاَّ يفوتني «مقيل» عبد العزيز المقالح.. لأنه ببساطة سرعان ما يتحول إلى «ندوة» أُخرى من القراءة والنقاش، وتبادل الرأي، وإثارة الموضوعات في كل لون من ألوان الفكر والأدب والفن والسياسة، حتى ليغدو «المقيل» ، الذي يمتد ساعات بعد الظهر، مجلساً من مجالس الإمتاع والمؤانسة والحوار تخرج منه وقد سمعت الكثير، وأفدت الكثير مما سمعت، وأسهمت في كل ما دار من حديث.
اسمح لي إذاً، يا أخي الدكتور، - وهو اللقب الذي أصبح علماً بين الأخوة يشار به إلى هذا الرجل الهادئ الكبير -. اسمح لي أن أختم هذه الفقرة بأبيات من قصيدة «المقيل» التي نشرتها لي في صفحتك الأدبية المعروفة في صحيفة «٢٦ سبتمبر» ذات يوم، وعلّقتها في مدخل الجامعة، ليكرمني الرائحة والغادي عليك بقراءتها:

قل فيه ما شئتَ، واتركني بزاوية
منه، أبعثرُ عمري.. ثم أجمعهُ
هذا اليَبابُ الذي ما زال يزرعني
يُتْماً وحزناً.. هنا بالشعر أزْرعُهُ
هو «المقيلُ».. وتخضَرُّ الحياةُ على
شطآنه، ويلاقي النهرَ منبعُهُ
قل فيه ما شئتَ..
حسبي أنَّ لي رئتي
مِلْءَ المكانِ، ونبضي فيه أسْمَعُهُ
على «الحَشِيَّةِ».. ألقي الأرضَ عن كَتِفي
واستريحُ.. ورائي القهرُ أجمعُهُ
وللأحاديث حولي ما يُفَجِّرها
دفقاً.. ويُشْبِعُني سحراً وأَشْبِعهُ
المهدُ مهديَ يا صنعاءُ.. فاقتربي!

آليــتُ.. سُــؤْرُ حنينــي لا أضــيِّعهُ
هـذا الثـرى لـم يَمُـتْ.. مـا زال فــي
جمــرٌ.. وفــي قــدمي غُــلٌّ أمزِّعُــهُ
خذني إلى اللحظة الخضراءِ.. مُتَّكِئِي
بـاقٍ.. وحزنــي كمـا اختـارُ أجْرعُـهُ
إلـى «المقيـل» وأهلـي.. إنهم قَدَري
فـيهم.. أبعثـر عمـري.. ثـم أجمعُـهُ(٨)

٤

عَلَم الوحدة..
عَلَم اليمن الواحد.. يرتفع رويداً رويداً على السارية النحيلة، المرفوعة الرأس، في إحدى ساحات عدن، على الشاطئ المفروش. بزُمرُّد البحر، وضوء الشمس الساطع.
عَلَم الوحدة.. يرتفع رويداً رويداً، ويُنهي انشطار الجسد إلى شطرين.. ويعود التاريخ إلى الالتحام.. أرضاً يمنية واحدة، وشعباً عربياً واحداً، كما أراد له الله أن يكون منذ كانت الأرض، وكان التاريخ.
عَلَم الوحدة يرتفع.. صباح يوم جميل من أيام الصحو والضوء والدفء. على الشاطئ المفروش بزمرُّد البحر، وضوء الشمس الساطع في عدن..
ويستقر العَلَم.. عَلَم الوحدة اليمنية على ذروة السارية، ويخفق مع هبّات النسيم الرخيّ، مبشراً بحياة جديدة، ويمن جديد.
وتطفر دموع الفرح في العيون.. عيون الكثيرين من إخوتنا اليمنيين الذين احتشدوا في الساحة الكبيرة، من كل أرجاء الوطن، يحتفلون بهذا الحدث التاريخي المجيد الذي حققوه، وفاجأوا به العالم صباح الثاني والعشرين من أيار (مايو) من عام ١٩٩٠.
وكان عبد العزيز المقالح بينهم في الساحة.. يحتفل هو أيضاً في نشوة وصمت بهذا الحدث الرائع الذي انتظره الإخوة اليمنيون، وانتظرناه معهم طويلاً.
كانت الوحدة مفاجأة لنا جميعاً.. كما كانت مفاجأةً للعالم. لقد فرح بها العرب قاصيهم ودانيهم، ورأوا فيها بارقة أمل، وإشراقة رجاء، وهم في غمرة الأحزان والمآسي والنكبات.
ومرةً أُخرى.. برهن الإخوة في اليمن أنهم قادرون على اختراق الزمن الشاحب البليد، والقفز إلى ساحة الضوء والحرية والحياة بشجاعة وتصميم، لا يكاد يتوقعهما أحد من بلد

---

(٨) ديوان اليمن، ص٢٩٠ وما بعدها.

حوَّله التخلف والقهر والحرمان عصوراً طويلة إلى كهف مظلم.. إلى مقبرة معزولة عن العالم.

كنت آنذاك في تعز.. أرقب المشهد التاريخي في التلفاز، وأُشاطر اليمن ـ المهد فرحته وسعادته بالوحدة.

في اليوم نفسه.. كان شعوري بالحدث التاريخي الجديد يتحول إلى قصيدة، حاولت أن أُفرغ فيها حنيني إلى الوحدة التي أقمناها ذات يوم هناك.. بين سورية ومصر الغاليتين، وأضع أملي بهذه الخطوة العربية التي يمكن أن تكون الانطلاقة الجديدة نحو تحقيق الحلم العربي المنشود.. وحدة الأُمة العربية.. والوطن العربي الكبير:

إِمــــلأ بهـــا التــــاريخَ والزَّمنــــا

وُئِـدتْ هنـــاك.. لكـــي تعـيشَ هنـــا

إِمــلأ بهــا عينيــكَ.. كـم قُصِــفَتْ

وتهشَّـــــمَتْ.. ولبســــتَها كَفَنــــا!

إِمــــلأ بهـــا الأحـــلامَ.. نبـــدؤها

حُلُمــاً يضـــجُّ بنـــا.. يطيـــرُ بنـــا

إِمــلأ بهــا الأنقــاضَ تُحْـدِقُ بـــي

وأَزيحهـــا.. أنـــا مـــا أزالُ أنـــا

إِمــلأ بهــا الغُصَــصَ التــي قَتَلــتْ

صَـــــحَواتِنا ورُقادَنـــــا حَزَنـــــا

إِمــــلأ بهـــا أحـــــداقَنا أمَـــــلاً

أسْــــكِرْ بهـــا الشــــطآنَ والقُنَنـــا

عـــانِقْ بهـــا كُــلَّ الـــذين نَسُــوا

أنَّ الفواجــــــعَ قـــــد تُفَجِّرُنـــــا

عـــانقْ بهـــا الأطفـــالَ.. فَهْـــي لهـــم

قبــل الحســـابِ بـــأن تكـــونَ لنـــا

إِمـــــلأ بهـــــا قلمـــــي مُغَـــــرِّدةً

إِمـــــلأ بهـــــا الآلامَ والشَّــــجَنا

إِمـــلأ بهـــا التــــارِيخَ.. نبـــدؤُه

يَمنـــــاً.. لِتُصـــبحَ أمَّـــــةٌ يَمَنـــا

هـــي وَحْــدَها القَــدَمُ التـــي بقيــت

لنعـــــودَ أحيــــــاءً.. تحرِّكُنـــــا

هـــي وَحْــدَها خَشَــبُ النجــاة فمــنْ

يَعْلَـــقْ إلـــى شـــطِّ النجـــاة دنـــا

هـــــــي وَحْـــــــدَها السَّــــــحَرُ

هـــــــي وحـــــــدها القَــــــدَرُ

هـــي وحـــدها.. يـــا مـــن يقاتلُهـــا

درعُ الأمـــان.. وحولنـــا الخَطَـــرُ

عميـــــاءُ.. لا تُبْقـــــي ولا تَـــــذَرُ

هـــي للجميـــعِ.. لمـــن يُناجِزُهـــا

ومَـــنْ رَبَـــطَ الشـــراعَ بهـــا

فـــــؤاداً.. فاتحـــــاً نَبَضـــــاتِه..

شـطآنه.. أغـوارَه.. أنجـادَه.. وَطَنـا

٥

شريط الذكرى.. طويل..
سأكتفي منه بهذا القدر..
أُتراني أنصفتُ الشريط!!
أنا الآن في تعز.. في هذه المدينة الهادئة، الساحرة الطبيعة، التي ما تزال تنتظر أن تمتد إليها يد التجديد والتحديث والبناء فتحيلها عروساً من عرائس الجنة على الأرض.
سندريلاّ الجميلة.. في ثيابها المهملة.. تنتظر من يخلع عليها ثياب العرس، في كل

ناحية من نواحي العمران والحياة.

استلهمُ منها.. واكتب لها «رباعيّة وادي الضباب»، وتظل تومي إليَّ كل يوم بجديد.. على غربتي وغربتها، وعنائي وعنائها.

أنا الآن في تعز الخضراء.. منذ ما يقارب الأعوام الثلاثة.. زوجتي الدكتورة ملكة أبيض تعمل مدرسة في كلية التربية، وأنا متقاعد، «محال على المعاش».. كما يقول إخوتنا في مصر.. أزجي وقتي بالكتابة والمطالعة قدر ما تسمح به الفرصة هنا للكتابة والمطالعة.

* *

ولا أريد أن تنتهي هذه الخيوط من الذكرى دون أن أقف على مشارف صنعاء، وأسجل هذه الذكرى التي ستظل تلمع في أعماق البال.

ذكرى «دار الحجر» في «وادي ضهر»، الذي تحدثت عنه قبل قليل.

«درة المقيل» كما سميته ذات يوم، الأخ والصديق خالد عبد الله الرويشان يصطحبنا بسيارته، أنا ورفيقة الدرب ذات صباح إلى هذا الرحيب الأخضر المنداح، تعلوه كبرياء القبة الزرقاء، إلى «وادي ضهر»،

وتلمع في الأفق لؤلؤة اسمها «دار الحجر»، تخبأت فيها كنوز الشمس والقمر، ويصر الأخ خالد أن يكون غداؤنا اليوم في شرفة رائعة من شرفات «دار الحجر» التي تربعت فوق الصخرة الملساء، الأخضر الساجي يغني... خلني في نشوتي، على شفا الصخر هنا، أرتشف الغناء.

صنعاء: ١٩٩٩

عجائبُ الدنيا السبع

عجائبُ الدنيا السبع..
الدنيا القديمة طبعاً..
كانت هذه الكلمة تأسرني منذ الطفولة، تأخذني إلى عوالم بعيدة من الرُّؤى والتصوُّرات.
ما هذه العجائب؟ ولمَ كانت سبعاً؟
لابدَّ أنها قمة المعجزات الإنسانية.
كنت أقرأ أسماءها في كتاب قديم أصفر، نسيتُ اسمه، تَعودَّ الوالد الشيخ أحمد - نضَّر الله ثراه - أن يضعه في المكان المناسب من صندوق الخشب الكبير الذي كان يحفظ فيه كتبه.
الأهرام، منارة الإسكندرية، حدائق بابل المعلقة، سور الصين، تاج محل.. الخ.
وأشرد بعيداً، أنا الفتى الريفي الصغير، ابن الحارة التي لا تتجاوزُ بيوتُها العشرين:
هل يمكن أن أرى الأهرام يوماً
هل يمكن أن أزور حدائق بابل المعلقة؟
هل يتاح لي أن أرى سور الصين.. أو تاج محل؟
كانت تلك أحلاماً لا يخطر لي على بال أنها يمكن أن تتحقق في يوم من الأيام.
وأضحك من أحلامي، وأنا في قريتي الصغيرة، حين أقف يوماً على قمة أعلى ناطحة سحاب في العالم، في مدينة نيويورك، منذ عامين..
وتراودني الابتسامة مرة أُخرى حين أصعد قمة «برج تورنتو» في كندا، أعلى برج في العالم حتى الآن وأنا في طريقي إلى شلالات «نياغارا». ومن يدري؟ ربما ارتفع بعد أيام برج أعلى وأهم منه في مكان ما من دنيانا الجديدة.
عجائبُ العالم لم تعد سبعاً إذاً.
هناك العشرات بل المئات من مثل هذه التي كانت تُعَدُّ يوماً معجزاتٍ صنعها الأجداد.
مَرْكَباتُ الفضاء.. التي نشاهدها تمخر عباب الكون من حولنا، ونرافق مسيراتِها الهائلة على شاشات التلفاز.. أليست هذه من العجائب التي لم تكن تخطر لنا، ولا لآبائنا الكرام على بال؟
ومع هذا تظل زيارتي للأهرام، وزيارتي لسور الصين، وحدائق بابل المعلَّقة، وتاج محل.. من الذكريات التي لا تُنْسَى.
والغريب في هذه الزيارات أنها بدأت بأبعد أُعجوبةٍ من هذه الأعاجيب.. بدأتْ بسور الصين، وقد تحدثتُ عن هذا في مكان آخر من قصة «مدن.. وأسفار». كان ذلك في أواخر الخمسينيات، وكنت ما أزال في زهوة العمر.

أما الأهرام.. أهرام مصر الخالدة.. فقد أُتيح لي أن أزورها في الفترة نفسها تقريباً. كنتُ نَهْباً لمزيج غريب من الأحاسيس والمشاعر حين وقفتُ مع زوجتي، وعدد من رفاق الرحلة التي قمنا بها آنذاك لأرض الكنانة، أمام هرم «خوفو» الأكبر، هذا الأثر الهائل الذي ما يزال في رأيي من أهم ما أنجزته حضارة الإنسان على الأرض.

وما لبثنا أن حنينا رؤوسنا، ودخلنا الممرَّ الضيق في قلب الهرم، الممرَّ الذي يقودك إلى قبر الملك.. ثم إلى قبر زوجته الملكة، لنجد أنفسنا أمام تابوتين فارغين، من الحجر الصَّلْد، أمَّا جثمان فرعون العظيم وزوجته، أعني الجثتين المُحَنَّطَتين فقد نُقِلتا منذ أمد بعيد إلى المتحف.

ها نحن أولاءِ، مجموعة من رفاق الرحلة، في قلب الهرم الأكبر. ترفُّ علينا نسمة ناعمة نقية لا يدري أحد من أين تأتي، ولا كيف تأتي، في ذلك النَّفق الصغير الذي يلفُّك بالصمت الرهيب والصخور الضخمة المنحوتة بدقة ما تزال تدهش النظر، وتحيِّر الألباب منذ أربعين قرناً.

ونخرج من أعماق التاريخ، من قلب الهرم، لنلتقطَ بعض الصور أمام تمثال «أبي الهول»، وأنا أُردد بعض الأبيات من قصيدة شوقي في هذا الأثر الجبَّار:

أبــا الهــولِ.. طــالَ عليـكَ العُصُـرْ

وبُلِّغْـتَ فـي الأرض أقْصـى العُمُـرْ

فيــا لِـدَةَ الـدهرِ، لا الـدهرُ شَـبَّ

ولا أنــتَ جــاوزتَ حَــدَّ الصِّــغَرْ

تُســافرُ مُنْــتَقِلاً فــي القــرون

فأيَّــانَ تُلْقِــي غُبــارَ السَّــفَرْ؟

يا كتابَ الوالد الشيخ أحمد..

دعكَ نائماً في خزانتكَ الصغيرة.. صندوق الخشب.

لقد أُتيح للفتى الصغير أن يحققَ الكثير مما قَرأَه فيك.

* *

هل رأيتَ «بابل»؟

ألقى عليّ الأخ والصديق العراقيُّ هذا السؤال، ونحن خارجون من قاعة الاحتفال الكبرى، في مهرجان المتنبي الذي أُقيم في بغداد في أواسط السبعينيات، وكانت لي في المهرجان قصيدة حارَّة أرسلتُها على أمواج الأثير وشاشات التلفاز إلى شاعرنا الكبير الذي احتفينا به على امتداد أسبوع.

أجبتُ الأخ والصديق العراقي:

لا، لم أزر «بابل» مع الأسف حتى الآن، بالرغم من أني أقمت في العراق فترة

دراستي الجامعية كلها.
قال:
هيا إذاً.. سنذهب إليها على الفور، سيَّارتي تحت تصرفك.
وركبنا سيارة الصديق وانطلقنا جنوباً باتجاه العاصمة التاريخية القديمة، مدينة بابل.
ساعة وبعض الساعة.. وها نحن أولاء على باب العاصمة التاريخية التي شغلت العالم قديماً بفتوحاتها وأمجادها.

قلت لصديقي: انطلقْ بي فوراً إلى المكان الذي أُقيمت فيه حدائقُ بابل المعلَّقة. أُريد أن أُشفي غليل طفولتي، وأُشاهد الأُعجوبة، أو بقايا الأُعجوبة التي كنت أسمع بها واقرأ عنها منذ الصغر.

وضحك صديقي، وهو يشير بيده إلى أكوام هائلة من التراب كانت على بعد خطوات منا، بعد دخولنا، هضاب ترابية تكدَّس بعضُها فوق بعض، وأخذت الريحُ تلعبُ بها، ثم قال:

هذه هي حدائق بابل المعلَّقة التي تريد أن تراها. لم يبق منها إلا ما ترى من رُكام. أَتْرِبةٌ صامتة يعلو بعضُها بعضاً، كانت في يوم من الأيام جنائنَ خضراً، تأخذ بالألباب. يقال: إن ملك بابل شيَّدَها لزوجته الشابة الجميلة التي جاء بها من آشور، من شمال العراق، كي لا تحس البعاد والغربة عن بيئتها الجبلية التي نشأت فيها، وهي تعيش هنا في بطاح وسهول منبسطة ليس فيها أيةُ مرتفعات.

ووقفتُ أتأمَّلُ أكوامَ التراب الهائلة التي يعلو بعضُها بعضاً.

ما أعجَبَ ما يفعلُ الزمنُ بما شاده الإنسان!

هل يمكن أن تتحول إحدى أعاجيب العالم السبع إلى مثل هذا المصير المحزن؟!

ثم انطلقنا نجوب شوارع العاصمة القديمة الصامتة، ونتلمسُ طريقنا عبر الجدران والأسوار العالية من الآجُرِّ الأحمر الذي ما يزال صامداً على الزمن، تزينه من حين إلى آخر صور الغزلانِ البريَّة المنقوشة على الجدار وهي تعدو في البوادي.
قال صديقي: هذا الآجرُّ الأحمر الذي تراه أمامك لا يقلُّ ثباتاً ومقاومةً للزمن عن حجارة الأهرام الضخمة. إنه زميلُها، ومعاصرٌ لها، لقد صنع الأجداد من هذا الآجُرِّ في بناء بابل على مر العصور ما يكفي لرصف طريق يصلُ إلى القمر. هذا ما يقوله علماء الآثار، ودارسو الحضارات في بلادنا.
قلت:
وهذا ما أراه أمامي. لقد عاش الأجداد ذات يوم هنا، وتركوا بَصَماتهم الباقية على جبهة التاريخ.

* *

أنا مدعو إلى ندوة أدبية تُعقد في دلهي الجديدة، في الهند.
فرصة رائعة لأرى فيها البلاد التي عَرَفها الأجداد، وعرَفَتهم، وأعطوها وأخذوا منها

الكثير، وسمَّوا أحلى بناتهم باسمها: هند.

ليــتَ هنــداً أنْجَزتْنــا مــا تَعِــدْ
وشــفت أنْفُسَــنا ممــا تَجِــدْ[٩]

وتُقِلُّنا طائرة روسية إلى موسكو.. ومنها إلى دلهي.

لقد عُقدت الندوةُ بدعوة من اتحاد كتّاب آسيا وأفريقيا، فلا عجبَ أن تكونَ موسكو هي طريقنا إليها، موسكو التي زرتُها غير مرة، وتركت في ذاكرتي دفتراً من الذكريات، سأظلمها قليلاً إذا لم أفرد لها فصلاً خاصاً في هذا الشريط الذي سميتُه: شريط العمر.

خلالَ الندوة يهيئون لنا الزياراتِ هنا وهناك.

ولكن أهمَّ هذه الزيارات كانت رحلتنا إلى «تاج محل»..

«الدمعة الكبيرة المتلألئة التي سقطت من جفن السماء على خد الأرض»..

كما قال عنه شاعر الهند طاغور.

و«تاج محل» ليس سوى ضريح أقامه في مدينة «أغرا» الإمبراطور المغولي شاهجهان لزوجته التي كان يحبها حتى الوَلَه ـ كما يروون ـ في أوائل القرن السابع عشر.

في هذا الأثر المعماري العالمي يمتزج الحجر بالشعر والموسيقا حتى يبلغ درجة النشوة. إنه قصيدة من الرخام، تحيط بها حديقة غناء واسعة يرتع فيها ثلاثمائة غزال.

ورحتُ أطوف في أروقة هذا البناء الذي يُغَنِّي. وأُجيل بصري في النقوش التي لا تنتهي.

على مدخل البناء الرائع يقع ضريح الزوجة الحبيبة الذي كان زوجها ينظر إليه من قصره المقابل، أنَّى تلَفَّت، فيراه أمام عينيه، لا يحجبه عنه شيء.

الهدوء الروحي، وجلالُ الصمت العميق، أبرز ما يميِّزُ المكان. ساعتان ونيف قضيناهما ونحن نتأمل الضريح التاريخي، ونسبح معه على جناحَيْ قصيدة صامتة، زاخرة بالمشاعر، مملوءة بالأسرار.

* *

عجائبُ الدنيا السبع.. لم تعد عوالمَ بعيدةً من الرؤى والتصورات، تَشْغَل خيال الفتى الصغير وأحلامه. لقد عرفَ الآن مُعْظَمها.. وشاهد أَهَمَّها ويحقُّ له أن يذكر أَنَّ أَهَمَّها كان في وطنه العربي، من صنع الأجداد.

ويمرُّ في رأسي سؤال عابر حزين: ماذا فعلَ الأبناء؟

---

(٩) البيت للشاعر عمر ابن أبي ربيعة.

مُثَلَّجة.. وغارة

الخريف يجمع غيومه الشفيفة، ويُدَثِّر بها الجبل كله.
الخريف شاعر ينثر قصائده كل يوم على الطريق الذي ينحدر بي إلى بيروت، ينقلني في مثل اللمح من نسمة صوفر الباردة في أعلى الجبل إلى نسمة البحر الرطبة في كورنيش المزرعة.
أنا في طريقي إلى المطبعة، أُصحح فصول هذا الكتاب. ولابد أن تأكل الحروف، مرة أُخرى، ما تبقى من ضوء العين.
الأخ الشاعر منير حمودي، المشرف على كتابي، والأخ حكمة مشموشي أبرع من نضَّدَ كلمة مطبوعة على شاشة حديثة ينتظرانني، لِنُنجزَ العمل معاً.

* *

بيروت تنفض رمادها، وتنهض من الحطام الذي فُرِض عليها. سبعة عشر عاماً ظلت الأيدي الحاقدة على لؤلؤة الشرق ووردة العرب تصب فيها الخراب والدمار.
عشرون ألف.. ثلاثون ألف عامل يحفرون شوارع اللؤلؤة المدمَّرة، يزيلون الأنقاض، يعيدون بناءها مرة أُخرى. أسطورة طائر الفينيق التي نبتت هنا لم تكمن عبثاً. ها هو ذا ينشر جناحيه، ويعود مرة أُخرى، والأيدي الحاقدة ما تزال تضرب في الجنوب، تقتل الناس، وتدمر البيوت، والجنوب ما يزال صامداً.
أنا في طريقي إلى المطبعة، وآخر فصول هذا الكتاب تنتظرني، لا بدِّ أن أكون مع الصفحات المنضَّدة، أُعيد قراءتها كلمةً كلمة، وحرفاً حرفاً، لأطمئنَّ على أني سأضع بين يدي قارئي كتاباً سليماً من الأغلاط. وبعد الجهد والعرق، وإحراق ضوء العين، تبقى أغلاط ولا ينجو الكتاب من هفوات، نعزِّي أنفسنا عنها بمثل هذه العبارة: «أخطاء لا تخفى على القارئ اللبيب».
قبل المطبعة.. لابد أن أُلقي حقيبتي الصغيرة، وأنزل ضيفاً على أبي زياد، وأُم زياد.
في البيت الوادع الأليف، بيت أبي زياد الذي يحتلُّ الدور الثامن من بناء يرتفع عالياً في باحة ضيقة من «برج أبي حيدر»، أضع حقيبتي الصغيرة، والتقط أنفاسي.
القريبان العزيزان عثمان وسميرة يتلقيان عمهما الشاعر كما يتلقى المرفأ الصغير الآمن شراعاً مُنْهَكاً وصل لتوه من أعماق البحر.
- الكهرباء لم تنقطع منذ ساعات. والمِصْعَد يعمل. كان حظُّك عظيماً يا شاعرنا. ولو تأخرت قليلاً لاضطررت إلى صعود الطوابق الثمانية مشياً على قدميك. هذا ما نفعله كل يوم.
تستقبلني قريبتي الرقيقة المرهفة أم زياد بهذه الكلمات وهي تسرع إلى تهيئة فنجان

القهوة.
ـ الصعود مغامرة حلوة.. مهما كان الثمن، وأنا على تعبي وكِبَري ما زلت أحب مثل هذه المغامرات.. أسرعي بفنجان القهوة أيتها العزيزة.. المطبعة بانتظاري.
يضحك أبو زياد، هذا الفتى النجيد الذي يهب وقته ونفسه لي، ولكل من يمتُّ إليه بصلة، كلما لقينا ولقيناه.
ـ عندما تعود من عملك عند الغروب، سنكافئك اليوم بنزهة حلوة في السيارة يا أبا معن. أعرف مكاناً في الضاحية يصنع أشهى «المثَلَّجات» في بيروت، لابد أن نمر به، وننعم عنده بطبق من «البوظة» ينسيك تعب النهار كله.
وأغرق في عملي طوال النهار..
وأعود في الغروب.. لأجد القريبين العزيزين أبا زياد وأُم زياد بانتظاري.
ـ إلى المشوار، إلى الضاحية، يجب ألاَّ نتأخر.. تهتف ابنة العم سميرة، هذه النسمة الرقيقة التي تملأ البيت حركةً ونشاطاً على رقتها ونحافتها. يسبقنا إلى السيارة ولداهما طالبا الثانوية والمتوسطة زياد وعماد، وهما أشدُّنا حماسةً لنزهة الغروب، و«المثلَّجة» الشهية التي تنتظرنا.
تنطلق بنا السيارة جنوباً، والشمس تلم آخر أشعتها عن لؤلؤة العرب التي تنفض رمادها، عن بيروت، ونسمة البحر الطرية تداعب وجوهنا، توشوشنا: أنا هنا.. يزول الغزاة كلهم، ويبيدون، وأبقى لكم، أبقى هنا.. للحب، والشعر، والحياة، لكل ما يجعل الإنسان إنساناً على الأرض، وتحت السماء.
يا نسمة البحر الطرية.. كُتبتْ فيك قصائدُ لا عدد لها، وتغنَّى فيك شعراء لا يُحْصَون، وبقيت أنتِ، أنتِ على العصور، تمدين الجذورَ بالنُّسْغ الحي، وتجددين فينا الحياة.
نحن في «خَلْدة» الضاحية الجميلة الخضراء، والبحر جارنا، والأضواء تسطع على الطريق، والهدوء يلف كل شيء حولنا، إذا استثنينا حركة الطريق وزحام السيارات المتلاحقة عليه.
ويقف أبو زياد بسيارته أمام حانوت أنيق إلى جوار الشاطئ:
ـ هذا هو المكان الذي يصنع أشهى «مُثَلَّجة» ـ آيس كريم ـ في بيروت، بل في لبنان كله. تفضلوا.. فانزلوا!
وننزل، ويستقبلنا صاحب الحانوت ببشاشة وأُلفة، كأنه يعرفنا من زمن بعيد، ونطلب إليه ما نريد. وما هي إلا لحظات حتى تكون «المُثَلَّجة» الشهية أمامنا، ونحن نرمي بأبصارنا إلى الهضاب العالية المجاورة التي لفّها الظلام منذ قليل، إلا من أنوار تلمع هنا وهناك على الجبال الصامتة.
كنت قد أخذت أنسى تعب النهار كله بالفعل، وأنا أتناول «المرطِّبة» اللذيذة، وأشرد في هذه القمم الغريبة الصامتة التي لفها الظلام منذ قليل.

فجأة.. يدوّي انفجار رهيبٌ على إحدى الهضاب المجاورة التي نتأملها، ثم يتلوه انفجار ثانٍ.. فثالث.. فرابع..
كانت الأصوات التي زلزلت الهضبة غير بعيدة عنا، حتى خُيِّل إلينا أن الانفجار التالي سيكون فوق رؤوسنا.

وأخذت سحب الدخان ترتفع في الجو، ثم عاد الانفجار بعد لحظات يزلزل التلال الوديعة المجاورة.

- ما هذا يا أبا زياد؟

سألت بلهفة، وقد توقفت عن تناول «مرطّباتي».

- غارة.. يا أُستاذ.. غارة من هذه الغارات التي يشنها العدو علينا كل يوم تقريباً. طائرات صهيونية تقذف المنطقة، تريد أن تُسكت الصوت الذي ظنوا أنهم أخمدوه إلى الأبد.. صوت لبنان الحر المقاوم. الغارات تتوالى.. ولبنان المقاوم العنيد ما يزال واقفاً على قدميه. أكمل «بوظتك».. ولا تهتم. لن نبرح مكاننا حتى تنتهي الغارة، ونواصل «مشوارنا».

وتنتهي الغارة بعد قليل..

ينتهي القصف المدمّر..

وأعيننا معلَّقة بسحب الدخان الذي يعلو وينتشر فوق الجبل حتى يبلغ عنان السماء، تاركاً وراءه حطاماً من الدور، وحطاماً من الناس، وكأنه يقول بلسان العدو المُغير:

تلـــــك آثارُنــــــا تـــــدلُّ علينـــــا..

نعم.. تلك آثارهم تدلُّ عليهم، على المجرمين القَتَلة.

إن الحقد الذي انصبَّ على بيروت، لؤلؤة العرب، سبعة عشر عاماً يُعمل فيها الدمارَ والخرابَ، ما يزال يوالي ضَرَباته على الجنوب، وعلى الضواحي، وفي كل مكان ترتفع فيه نبرة مقاومة، نبرة عنفوان، ترفض الغزو، وتقول: لا، للغزاة.

نكمل «مرطّباتنا» التي نَغَّصَتْها الغارة الوحشية، ثم ننهض في صمت، عائدين إلى البيت.

تشرين الأول: ١٩٩٥

ساعة مع المحيط

من ذكريات رحلة

الباخرة الأنيقةُ تتحركُ على صدر المحيط
كما تتحرك نغمةٌ تنطلقُ من وترٍ رائعٍ في الفضاء.
أنا وهي.. على المقعد الأبيض..
على شرفة السفينة
نتأملُ صفحةَ الماء اللانهائية تحت أقدامنا.
المحيط.. هذا المكان العجيبُ الرهيب
تشقُ الباخرةُ الضخمةُ الأنيقةُ صدره
وكأنه لا يحسها ولا يشعرُ بها
إلا كما تشعرُ شاهقاتُ الجبالِ بدبيب نملة
على سفحها.
الباخرةُ تتحركُ باتجاهِ الشمال..
ونحن شاردان في زرقتينِ يضيعُ فيهما الخيال:
زرقةِ السماء.. وزرقةِ الماء.
أنا وهي.. وحفيداتنا الثلاث..
عائدون من رحلةٍ جميلةٍ..
حلمنا بها، وأعددنا لها منذ أمدٍ بعيد.
رحلة بحرية إلى جزيرة «برمودا»
في المحيط الأطلسي.

«برمودا».. هذه القصيدةُ الملقاةُ في وسط المحيط.
كتبتها يدُ الطبيعة بكل ما تملكُ من ألوان،
وراحت تدعو الناسَ والأزهارَ والطيورَ إليها،
ثم أقامت إلى جوارِها حارساً مجهولاً من الخَطَر
لا يجرؤُ مخلوقٌ على تحديه.
سمَّوه: مثلثَ برمودا.

* *

نحن عائدون من القصيدة الساحرة

الملقاةِ في المحيط،
نحملُ زاداً من الذكريات سيُمتعنا طويلاً طويلاً.
ولستُ هنا لأسجلَ هذ الذكريات..
إنـي أريدُ أن أعيشَ لَحَظاتٍ
مع هذا الكائنِ العجيب الرهيب..
مع المحيط الذي يمتدُّ أمامي في صمتٍ وجلال
حاملاً كلَّ أسرارِ الكونِ في صدره
وهو يبدو في هذه الساعة الحلوةِ من الغروب
هادئاً، حالماً، وديعاً..
كطفلٍ ساحرِ الجمال يرقدُ في سريرٍ لا حدودَ له.
قالت رفيقتي: إني أحبُّ البحر.
قلت: وأنا أتذكر في هذه اللحظات كل من عشقوه،
وتغنَّوا به، وضاعوا فيه.
قالت: لعلَّ أروع المغامرات التي قام بها الإنسان كانت مع هذا المجهول الجبَّار.. مع البحر.
قلت: ولعلَّ المغامرة ما تزالُ في البداية. إنه يخبئ لنا من الأسرار ما لا نحلم بـه. ولـن يهدأ الصراعُ معه، لن يهدأ أبداً. ولكنْ دعينا للشعرِ والمتعة الآن.

* *

الباخرةُ الأنيقةُ تتحرك..
وأنا أتذكر قصائد «بايرون» التي أملاها الموجُ الهادر،
و«موبي ديك» و«الشيخ والبحر» وفرس عقبةَ بن نـافع الذي وقفَ علـى شواطئه متحدياً ذات يوم، ثم ألقى عصـا التحدِّي فـي عُبـاب موجـة جبَّارة. كل هذا كـان يمـرُّ أمـام عيني، والزُّرقتانِ ما تزالانِ تفتحان أبوابَ المجهول أمامي: زرقة السماء وزُرقة الماء.

* *

فجأةً: يشقُ صدر المحيطِ الحالم شيءٌ ضخمٌ، يرتفعُ فوق المـاء كالشـهاب السـاطع، ثـم يهوي، ثم يرتفعُ كرةً أخرى.. يا لَلْمشهدِ المثير! إنه حوتٌ من حيتان المحيطِ الهائلة، يقطعُ علينا شرودنا وأحلامنا ليقدِّم لنا بعض ما يزخَر به هذا الكائنُ الجبَّارُ من صور.
ويُهرع سكانُ السفينةِ من كل مكانٍ ليتـأملوا المشـهد المثيـر، الشـهابَ السـاطع الـذي مـا يـزالُ يعلـو فـوق المـاء، ويهـوي، كأنمـا يعـرضُ علينـا بعـضَ ألعابـهِ الرائعـة، ليُمتِعَنـا أو يُخيفنا.. لا أحدَ يدري.
لَحَظـات.. ويتـوارى الشـهابُ السـاطعُ فـي أعمـاق المـاء، ونعـودُ إلـى مقعدنا الأبـيض وأحلامنا.

* *

ومن أعماقِ الأُفُق..
تطلُعُ سحابةٌ ربداء..

تتلوها سحابةٌ تغطّي وجهَ الأُفُق.
وتكفَهِرُّ الزرقتانِ الجميلتان
زرقةُ السماء وزرقةُ الماء.

وفي دقائق..
يكونُ الطفلُ الهادئُ الوديعُ
الذي يرقدُ في سريرٍ لا حدودَ له
قد انقلبَ مارداً يُطلقُ زئيرَه من بعيد
وهو يعدو نحونا..
عاصفاً، مزمجِراً.

البحرُ غاضبٌ..
لا يدري أحدٌ ما الذي أثاره وأغْضَبه؟
ولكنه لا يبالي بنا..
ولا يقدِّم تفسيراً لسلوكه
لنغادِرْ مقعدنا وأحلامنا إذاً
وَلْندخُلْ حُجرتَنا في السفينة
نُصغي إلى زمجرةِ الريح،
وصوتِ المطر
ونحنُ في أمان.

١٩٩٧م

صباح في جنة العريف

لمحة من زيارة للأندلس

صباحُ الخيرِ..
يا ظُلَلَ العريفِ!

صباحُ الخيرِ.. يا بُستانَ أَهلي
عبيرُ دمشقَ مِلْءُ دمي
وأنتِ حديقتي..
وإذا مددتُ يدي هنا..
فإلى قُطوفي

* *

صباحُ الخيرِ..
يا فِردوسَ أمسي

ويا قَدَمي..
على عِطّري.. على النَّفَحاتِ نَشْرِ يديَّ
طَوفي..
يَسِيحُ بكِ الغريبُ إلى جِواري
دعيه يمرُّ.. يشردُ فيكِ..
دنيا من فتونٍ
وتحتضنينَ طفلَكِ في هدوءٍ
ونتركُ خلفَنا الدُّنيا
ونفتَحُ دفترَ الألَقِ المُسَجَّى
ونبدأُ قصةَ الماضي الوريفِ
معاً كنا.. وأحضِرُ في شِغافِ قصيدتي
معاً كنا.. أنا ورفيقتي..

نستنفرُ الألقَ المسَجَّى
ونقرأَ قصة الماضي الوريفِ

* *

«خَنَا ناريفْ»[١٠]..
لا، لا..
هذي: جَنَّةُ العريفْ»
أقولُ لجارتي الحسناءِ.. جاءَتْ
تَطَوفُ كما أطوفُ هُنا
وتَسألني: أعدْ لي إِسْمَهَا العربيّ
تُلِحُّ عليَّ: قُلْ لي إِسمَها العربيّ
سأحفَظَ إِسمْهَا[١١] العربيّ
وتُذْهِلُها روائعُنا..
أقولُ لها: أَجَلْ.. هذي روائعُنا
تركناها لمن يأتي كتاباً
من الأمجادْ
تمرُّ به قوافلُ ليسَ تُحصى
من الروَّادْ
وتقرؤُنا.. على الحمراءْ
قصائدَ لم تزل صدَّاحةً
في كل زركشةٍ.. من الحمراءْ

* *

صباحُ الخير..
يا ظَلَلَ العريفِ!
عبيرُ دمشقَ مِلْءُ دمي
وأنتِ حديقتي..
وإذا مددتُ يدي هنا..

---

(١٠) خنا ناريف: هو اللفظ الإسباني لجنَّة العريف.. حدائق قصر الحمراء المعروفة.
(١١) أثبتت همزة الوصل في (اسمها) نقلاً عن الحكاية.

فإلى قُطوفي

غرناطة: مطلع كانون الثاني ٢٠٠١

هذه القصائد الصغيرة كتبت في مونتريال حين اضطررت ذات يوم إلى زيارة كندا في الشتاء للعلاج حيث تقيم ابنتي الدكتورة بادية العيسى.

إلى مونتريال

في الشتاء

جلبابُكِ الأبيضُ الوهَّاجُ أعرفهُ
يحيكُ لي مثلَه فوق الذّرا بلدي

هناك تَغْمرني دفئاً بُرودتُه
ويقشعِرُّ هنا من لَذْعِه جسدي

وما تنكَّرْتُ لِلّقيا..
فقد مُلِئَتْ
من نُعْمَياتكِ يا بِنْتَ الجمالِ يَدي

٢٠٠٥م

الأمطارُ البيضاء..

إلى الصديق الشاعر ج. أ.

الأرضُ حـــــولي.. وردةٌ بيضـــــاءُ
مـــاذا أغنّـــي؟ والســـماءُ غِنَـــاءُ

وألُـفٌّ بالصـمتِ العميـق قصـيدتي
وتضِــجٌّ مِـــلءَ حُروفِهـــا أشـــياءُ

أنــا يــا صــديقي ضــائعٌ فــي ســكرةٍ
بيضـــاءَ كـــلُّ كؤوسِـــها خضـــراءُ

دعنـــي أهدهِـــدْ وَرْدتـــي بِثَمالـــةٍ
قـــد خَبَّأتْهـــا فَـــي دمـــي الصـــحراءُ

عَبَثـاً أغَيَّـبُ عن جُذوري، فـي دمـي
سِــقْطَ اللّــوى، والرمــلُ، والبيــداءُ

وحَمَلْـتُ عِشْـقي.. لـم تَنَـلْ مـن نـارهِ
هـــذي الثلـــوجُ، فأَمُّـــه الرمضـــاءُ

دَعْنـــي إذاً يـــا شـــاعري أنشـــودةً
تَلْهـــو بهـــا أمطـــارُكَ البيضـــاءُ

مونتريال: ١٢/٢/٢٠٠٥م

أين اختبأتْ؟

أين اختبأتْ
كل هذه السناجيب الجميلة
التي كانت تهبط من أعلى الشجر
وتدرُجُ على العشب
برشاقة لا تُضاهَى؟
لكم كانت رفيقتي تحبُّها..
وتتفاءلُ برؤيتها
عندما تراها..

* *

السـماء تسـفَح أمطارَهـا البيضـاء
وتُـدثّر كـل شـيء بـالأبيض النـاعم
منذ صباحِ أمس..
لا رفَّـةَ جنـاحٍ فـوق الأغصـان

ولا أثَر لسنجابٍ يَدْرُج
الأرضُ من حولي
- على جمالها -
موحشة.

مونتريال: ٢٠/٢/٢٠٠٥م

بيــــاض

أفتشُ
عن زنابقكِ الحسانِ
تــرشُّ علــى يـدي خُضْـرَ الأغـاني
وأنَّى دُرْتُ
يَسْفَعُني بياضٌ
يمــوتُ بـــه الســؤالُ علـــى لســـاني

مونتريال: ٢٠٠٥ م

ثَلْجٌ.. ثلج.. ثلج

أجرُّ ورائي

كلَّ رمضاءِ رملنا

ووادي الغَضَا..

في لمحةٍ أَشعلُ الغَضَا

وألقاكَ..

يا مَنْ لايني متدفقاً

يُزَوبعُ في عينيَّ..

أبيضَ.. أبْيضَا..

مونتريال: ٢٠٠٥ م

مدينة الثلج

رداؤُكِ الأبيضُ
ينداحُ في
عينيَّ، يمشي في الرُّؤى
والظنون
يغتال حُلْمي..
لا أرى غيرَه
كيف يعيشُ الناسُ
لا يَحْلُمون؟

مونتريال: ٢٠٠٥ م

جارتي العملاقة

بيني وبينها زجاجُ النافذة
لو فتحتُه لجمدتُ من البرد
شجرةُ الصنوبر العملاقة
أصبحت رفيقتي منذ حللتُ هذه
الأليفة.. في بيت بادية.
جارتي العملاقة دائمة الخُضرة كما
أوراقُها التي تتكدسُ
وتعلو حتى الفضاء
يتدثّرُ نصفُها بالثلج
الخضرةُ يرقّشها البياض
يدُ السماء البارعة
هي التي منحتها كلَّ هذه الزينة
أتأملها..
وأتذكر أبياتَ أبي تمام الفخمة
التي كان يزخرفها بالجناس والطّباق
أو سيدةً صبغت بعضاً من خُصل
بالبياض
أتحدث إليها في صمت..
أنا على يقين أنها تبادلني الحديث
في صمتٍ أيضاً.

* *

غداً تشرقُ الشمس

وتتخلّى جارتي عن زينتها

غداً أسافر..

وأترك صورتَها هذه

في أعماق الذاكرة.

مونتريال: شباط ٢٠٠٥م

في بودابست

زمردة أوروبا

هذه الغواية..
هذا الحافز العميق
الذي نسميه الانتقال، الحركة، السفر،
اختراق الجدران التي تحيط بك..
سَمِّهِ ما شِئْتَ..
سأقف عنده قليلاً وأسأل:
هل هو إِرْثٌ من الماضي، من أعماق الزمن،
من الجاهلية حين كانت حياة الأجداد
رحيلاً مستمراً.. وحركةً دائبة؟

هل هو الحنين إلى المجهول، إلى التغيير،
إلى تجديد أنفسنا، كما قال أستاذنا أبو تمام؟

هل هو الهرب من الرتابة، والحياة العادية
والأشياء المألوفة التي تتكرر في حياتنا كل
يوم؟

لست أدري..
كلُّ ما أحسه وأعرفه أنني ورفيقة دربي
نبدأ التفكير في رحلة جديدة إلى أي مكان
نستطيعه في رحاب الأرض كلما دنا موسم
الصيف، أو الإجازة الصيفية، على الأصح،

فهي أستاذة في الجامعة، ولا تستطيع الانفكاك
من عملها، والتصرف بوقتها كما تشاء، إلا

في إجازتها الصيفية، أما أنا فمُحال على
المعاش - كما يؤثر إخواننا في مصر أن
يقولوا - ووقتي كله ملكي.
منذ مطلع الربيع.. نبدأ التفكير في رحلة
الصيف، وتتوالى الاقتراحات مني ومنها، بعد
أن نحسب جيداً ما يمكن أن نوفره من نقود
لمثل هذه «المشروعات» الأساسية في حياتنا.

* *

أقول لها: رحلة إلى الجارة تركيا ستكون
جميلة جداً.
سنرى في الوقت نفسه، أسرتنا وأقرباءنا
الذين تركناهم في أنطاكية منذ أمد بعيد،
وإنهم في شوق إلينا كما تعلمين.
توافق مبدئياً.. فقد سبق أن قمنا بهذه الزيارة
منذ نيف وثلاثين عاماً، وتحدثت عنها بكثير
من الحنين، وعدد من القصائد الحميمة في
معالم سيرتي الذاتية: على طريق العمر.
ولكني لست على يقين الآن أن جيراننا
سيسمحون لنا بزيارة «بساتين العاصي»
- مسقط رأسي - مرةً أخرى..
قالت: وهذا ما أتوقعه.. ثم أردفَتْ:
لِم لا نزورُ بقعةً جديدة لم نعرفها من قبل؟
لِمَ لا نقصد «زمردة أوروبا» هذه المرة؟

أتعرف ماذا أعني بـ «زمردة أوروبا»؟
إنها بودابست.. نعم مدينة بودابست،
عاصمة هنغاريا (المجر) التي يخترقها
الدانوب وهو في عنفوان شبابه وجماله
وروعته.

* *

ويلمع في البال فجأةً فالس الدانوب الأزرق
الذي أبدعه شتراوس، والذي كنت أسمعه،
وما زلت، في كثير من المتعة والإعجاب.
قصيدة موسيقية صغيرة لا أحلى ولا أعذب،
هذا الذي أملاه «الدانوب الأزرق» على أصابع
شتراوس، وما أظن صفة «الأزرق» هذه إلا
هدية من الموسيقي العظيم للنهر الجميل.
وتتابع رفيقتي: يقال إن بودابست أجمل مدينة
في أوروبا بطبيعتها الساحرة. إنها وردة
ضخمة تملك ألف لون ولون، يشقها الدانوب
إلى نصفين عالٍ ومنبسط، ولا تدري أيهما
الأمتع والأبهى.
لقد مررت بها مروراً عابراً ذات يوم، وما
زلت أحلم أن نمضي فيها بضعة عشر يوماً،
إنها زُمُرُّدة أوروبا فعلاً..

وبدون أي تردُّد.. وجدتني أوافق على الفكرة
بل أجعل منها قراراً نهائياً، ستكون إجازتنا
إذاً هذا الصيف في بودابست أو بودابشت كما

يلفظها أهلها.

* *

وتسارع رفيقة الدرب لتقول لي، وكأن شيئاً
جديداً خطر في بالها فجأةً:
هل نسيت أن ابنة شقيقتي المهندسة رشا تقيم
في بودابست منذ عامين أو ثلاثة، وأنها ما
تزال تلحُّ علينا من حين إلى آخر بزيارتها؟
قلت: وهذا ما يجعل الرحلة قائمة إذاً من
الآن.
دعينا نتصل برشا، ونخبرها أننا قادمون..
ونكلفها أن تحجز لنا منذ الآن
في فندق صغير مريح..
وهكذا كان..
فقد أخبرتنا ابنتنا المهندسة الصبية أنها
اختارت فندقاً يقع على أطراف المدينة، في
قلب غابة صغيرة، وستكون الأشجار الباسقة
والعصافير من كل الألوان، وسقسقةُ الماء من
حولنا، جيراننا الأَدْنَيْن طوال إجازتنا، وأنها
تأسف أشد الأسف لأنا رفضنا أن نكون
ضيوفها في بيتها الصغير الذي لا يكاد يتسع
لها ولزوجها وطفلتها.
نحن في مطار بودابست..
صباح ناعم جميل يداعب وجوهنا ونحن نخطو
أولى خطواتنا في المطار.. والطبيب الشاب
الدكتور فهد، زوج رشا، يفتح ذراعيه مرحباً

بنا، ثم يضمنا في سيارته، وينطلق بنا إلى «مأوانا» في قلب الغابة الخضراء، حيث نلقي عصا الترحال، ونستقر على فنجان قهوة في شرفة الفندق، تسقسق تحت أقدامنا نافورة ماء صغيرة تذكّرني على الفور بنافورة الحديقة في بيت ابنتنا بادية بمونتريال. إنها النافورة عينها التي تركناها ذات يوم هناك، وألحانها الحلوة ما تزال تملأ سمعنا وقلبنا معاً.

لَكَمْ تتشابهُ الأشياءُ الجميلة في كل مكانٍ من هذه الدنيا!.

* *

ما كدنا نستقر.. حتى بدأنا نخطط، ماذا سنرى؟ وأين سنذهب؟ خلال هذه الإجازة التي تفتح ذراعيها الخضراوين لنا، كل شيء من حولنا يلفّك بالخُضرة والنَّضرة. بودابست.. هذه الحديقة الضخمة بدت لنا أنها تملك أجمل ما أبدعته الطبيعةُ من لون وظل وماء.

قلت لرفيقتي: طبيبنا الشاب معنا، وهو يؤكد أنه غير منشغل هذا الصباح بشيء، لقد خصَّصه لنا. دعينا نَقُمْ بجولة خاطفة إذاً في أرجاء المدينة نجتاز بها نهرها الرائع، من على أحد الجسور التي تنتصب فوقه (كقلائد من جُمَان).. على حد تعبير أستاذنا المعري .. قلائد تصل بين ضفتيه الرائعتين هنا

وهناك، تاركةً النهر العظيم ينساب تحتها

زاخراً بالحركة والقوة والجمال.

وإنْ هي إلا لحظات.. حتى كنا فوق أحد

الجسور، نجتازه بسيارتنا الصغيرة.

ويدهشني أن الدانوب لم يكن أزرق كما أشاع

عنه موسيقارنا الكبير في «فالسه» الخالد،

ولكنه كان داكناً، شديد الدُّكنة، حتى خلته

يهدد بالتهامنا في كل لحظة، ونحن نمر من

فوقه آمنين.

منذ فترة قريبة.. كان النهر قد طفح كيلُه،

وغزُرَت مياهه إلى حد تهديد ضفافه القريبة

كلها بالغرق.

ولكن غضبته الشديدة كانت لحسن الحظ، قد

انحسرت عند وصولنا، وإن كانت آثارها ما

تزال عالقةً بالضفاف.

* *

هذا الداكن الغاضب الذي يهدر تحتي وأنا

أعبره، له في شعري ذكرى حلوةٌ حلوة،

تومض في البال الآن.

لقد أهديت إليه قصيدةً صغيرة قبل بضعة

أعوام، ترجمت إلى الفرنسية والإنكليزية،

وما تزال تحتل مكانها في أحد دواويني

السابقة. كانت القصيدة بعنوان:

خمس دقائق مع الدانوب

أيها الداكن الغاضب الذي يهدر تحتي الآن،

وأنا أعبر أحد جسوره، دعني أذكرك بأبياتي
الحلوة التي أمليتَها عليَّ ذات يوم..
هل تذكر أين؟
كان ذلك في بلغراد..
وأنت تعبر بلغراد كما تعبر بودابست..
كنتُ مدعواً إلى ملتقى أدبي هناك..
وحين قادتني الصبيَّة اليوغوسلافية، مندوبة
المؤتمر، إلى نزهة إليك، وقفتُ في مكان
تتلاقى فيه مع نهر السافا، أحد روافدك؛ كنت
أزرق المياه فعلاً.. وكان المنظر رائعاً.
أذكر أني همستُ في أذنك:

صـــباح الخيـــر.. يـــا أزرقْ!
ويـــــا إيمـــــاءة المُطْلَـــــقْ
صـــباحُ الخيـــر.. شـــيءٌ مـــن
ضـــــفافكَ فـــــي دمـــــي أورقْ
ألمُّـــــكَ، والصِّـــــبا خلفـــــي
بِهُـــدْبي، فـــي الـــرؤى أغْـــرَقْ
زمـــانٌ مَـــرَّ.. لـــم نُصْـــبَحْ
معـــاً كأســـاً، ولـــم نُغْبَـــقْ
ألُمُّـــكَ نغمـــةً عـــذراء..
ســــــرَّ حكايـــــةٍ مُغْلَـــــقْ
وأنـــتَ تُعـــانقُ «الســـافا»
ويَنْســـى الصـــحبَ مـــن يَعْشَـــق

وتسقي الوردة البيضاءَ[١٢]

حتـــــى يســـــكرَ الزنبــــقْ

تمــــدُّ يـــــديكَ للعشـــــاقِ،

فـــــي خُطَــــواتهم تَعْبَــــقْ

ووحــدي أجتلــي شــفتيكَ..

يـــــا لَلظـــــامئِ المُرْهَــــقْ!

صـباحُ الخيـر.. قُلها لحظـةً

مـــــن عمرنـــــا تُسْــــرَقْ

تلاقَـــى الشـــاعران علـــى

لُهـــــاثِ قصـــــيدةٍ تَغْــــرقْ

ولا أدري - وحـــقِّ هـــواك -

أيُّ جِراحِنـــــــا أعمــــــقْ!

دقـــــائقُ.. ثــــم يـــــدعوني

الشـــراع، ويُقلـــعُ الــــزورقْ

ويبقـــى خمــرك الأزلـــيُّ

يبقـــــى العطـــــرُ والـــــدورقْ

* *

صباحُ الخير..

أشعَرُ أنتَ..

أحلَى أنتَ..

يا أزرقْ![١٣]

كان ذلك في ١٩٨٢/١٠/١٩

إني مولع بالتاريخ.

* *

---

(١٢) مدينة بلغراد، واسمها الوردة البيضاء.

(١٣) ديوان: رائحة الأرض المترجم إلى اللغة الفرنسية، ص ٣٥..

نواصل جولتنا.. مؤثرين جوار النهر دائماً، نائين بأنفسنا عن زحمة الأسواق ما استطعنا. لزيارة الأسواق وقت آخر لابد منه..
ويلتفت إلينا الطبيب الشاب:
ما يزال الوقت مبكراً.. ما قولكم بزيارة لجزيرة مارغريت..
هناك في أقصى المدينة.. ربما كانت أروع ما يمكن أن تشاهدوه هنا.
جزيرة مارغريت.. أو مارغت.. كما يسميها أهل البلد..
هذا الاسم المقتطف من بيت شِعر بالغ العذوبة والرقة، وبادرتُ بالجواب قبل الجميع:
إلى جزيرة مارغريت.. الاسم وحده يغري بالذهاب إليها..
قال مرافقنا الشاب:
نعم.. إنها تحمل اسم صبيَّة حسناء، كانت إحدى الأميرات في هذا البلد.
وفي دقائق.. كنا نمتطي أحد المراكب النهرية التي تؤمُّ الجزيرة ذهاباً وإياباً.
في صدر الدانوب..
وها نحن أُولاء في جوار الجزيرة غير البعيدة التي راح النهر يطوّقها، ويُغدق عليها ما شاء من هِباتِ الجمال.

نزلنا ميناءها الصغير، ودخلنا هذا الفردوس الغارق في الخضرة والعشب والظلال. كان فندق أنيق يستقبلنا منذ الخطوات الأولى، تنتثر أمامه بعض مَقَاهٍ تُغريك بالجلوس منذ اللحظة الأولى.

كنت متعباً.. فلم أحتجْ إلى كثير من الإغراء لأجلس وأستريح قلت لرفيقتي:

إئذني لي آخذ قسطاً من الراحة، واملأ كل جارحة من جوارحي بهذه المشاهد الخلاَّبة التي تحيط بي الآن، وبعدئذ.. سأفكر في الطواف معكم في أرجاء هذا الفردوس المسوَّر بمياه الدانوب.
ضحكت رفيقة الدرب وقالت: سنتركك هنا تأخذ قسطاً من الراحة كما تشاء، وسنمتطي هذا القطار الصغير، ونقوم بجولة خاطفة في أرجاء الجزيرة، ثم نعود إليك.
وافقتُ على الفور، مكتفياً بما حولي من سحر وفتنة، وأخذت أرتشف فنجان قهوة طلبته بسرعة وأشرد في الأفق البعيد.

* *

لِسْت.. عازف البيانو المجري الأشهر، (مالئ الدنيا وشاغل الناس) في القرن التاسع عشر، هو عندي البلد كله.. لم ألمح له أثراً حتى الآن، كنت أتوقع أن أراه في مكان ما.. أصافحه.. أتحدث إليه فور دخولي المجر.

اعترف أني كنتُ في فترة من فترات الشباب مشدوداً إلى كل نقرة يوقِّعها هذا العازف العظيم على أصابع البيانو، ولا سيما مقطوعته الشهيرة (رابسودي هنغارية). لَكَمْ كنتُ مشغوفاً بهذه القطعة الموسيقية، الزاخرة بالانفعال، أنا وعدد من رفاقي، في مطلع الشباب. كنا نسميها (العاصفة). أذكر أننا ذهبنا مرةً إلى بائع أسطوانات موسيقية في

دمشق، وطلبنا إليه شراءَ هذه (العاصفة)، فضحك.. وعلمنا منه لأول مرة اسمها الحقيقي.

* *

وتحدث المفاجأة التي لم أكن أتوقعها، وأنا أرتشف فنجان قهوتي في حديقة الفندق الأنيق. يخرج إلى الحديقة فجأةً مجموعة من الفتيات والفتيان، بثيابهم الرقيقة المزركشة، ويبدؤون رقصتهم الشعبية على أنغام القطعة الموسيقية نفسها التي كنت مفتوناً بها وما زلت. يا لها من مفاجأة! ربما كان هؤلاء الشباب يقيمون احتفالاً في مناسبة ما، وقد اختاروا هذه «الرابسودي» التي قيل لي أنها أصبحت منذ أمدٍ بعيد رمزاً من رموز الفن الشعبي الأصيل في المجر كلها. بل ربما اختاروها هدية لي.. من يدري؟

وما كادت الرقصة الرائعة تنتهي حتى أقبلت رفيقةُ الدرب من جولتها في الجزيرة ورأتني منطلق الأسارير، باديَ الارتياح، قلت لها: لقد فاتكِ مشهد ربما كان أجمل من أية جولة يمكن أن نقوم بها في هذا البلد، وحدثتها بما شاهدت منذ قليل، كان حشد الصبايا والشباب ما يزال منتشراً في أرجاء الحديقة. أجابت: كانت جولتنا رائعة أيضاً، ويسرني أن تكون قد وجدت ما يعوّضك عنها خلال انتظارك لنا.

لا أريد أن أتحدث بالتفصيل عن كل ما شاهدناه في بودابست وما حولها، خلال إقامتنا فيها، لا أحب «السرد» العاري. إنني أؤثر أن ألتقط من هذه الزيارة ما كان له أثر يمكن أن يبقى في النفس وأن تستعيده الذاكرة بشيء من الحب والحنين.

الأشجار الخضراء واحدة في كل مكان.. ولكنْ.. أن تجد طفلاً في العاشرة. يقفُ تحت شجرة خضراء سامقة، يؤدّي لك التحية الرسمية، وهو يرتدي ثياب الطلائع، ثم يشير إليك أن تتفضل بالصعود إلى القطار الذي سَيُقلُّك في نزهة ممتعة إلى ضواحي العاصمة..

تلك لعمري لقطةٌ لابد أن تأخذ مكانها في أعماق الذاكرة.

إني ما أزال أرى هؤلاء الأطفال في زيّ الطلائع، يتولون قيادة «النزهة الممتعة» التي أقلَّتنا فعلاً، أنا ورفيقتي إلى ضاحية من ضواحي بودابست.

كان الطريق وحده متعةً تأخذ بالألباب، ولكن أجمل ما فيه كان أطفال الطلائع الذين تولَّوا قيادة القطار في الذهاب والإياب.

* *

هل سيلومني قارئي العزيز أو قارئتي العزيزة إذا أغفلتُ الحديث قليلاً عن القصر الملكي الرائع في هذه العاصمة؟

لقد زرناه غير مرة خلال إقامتنا فيها، طفنا قاعاته الفخمة، وباحاته الواسعة، بل تناولنا عشاءنا في إحدى حدائقه الجميلة ذات مرة.. كان عشاءً بسيطاً طبعاً، لا يعدو بعض الشطائر من اللحم أو الجبن، وبعض أكواب العصير.

ولكن أنسام المساء الباردة الناعشة في تلك الحديقة الصغيرة كانت أمتع وأشهى من أي طعام كان.

* *

سيعتب علي قصر (البرلمان)، أبرز بناء في الشطر الآخر من المدينة، إذا لم أذكره بكلمة عابرة، إنه جدير بأكثر من كلمة، ها هو ذا يبدو أمامي الآن وأنا في حديقتي الصغيرة التي تحدثت عنها قبل قليل شامخاً، مزهواً بجدرانه وسقوفه الرائعة، التي تلمع تحت أضواء المساء.

قال لي أحد الأصدقاء الهنغاريين:

لقد أُنفقَ على هذا البناء ما يكفي لانتشال نصف سكان المجر من الفقر الذي يعانونه. ربما كان صديقي مبالغاً، ولكن عَظَمة البناء التي تلوح أمامي من بعيد تسوّغ لصديقي أن يقول ما قال.

* *

ها قد مر أكثر من أسبوع على وجودنا هنا. وما أظننا تركنا مكاناً جميلاً في هذا البلد، أو فيما جاوره إلا عرَّجنا عليه، وأمضينا فيه ساعات جميلة.

ولكننا لم نقصد السّوقَ حتى الآن..

رفيقة الدرب لا تريد أن تغادر هذه المدينة المعروفة بمطرَّزاتها، ومنتجاتها اليدوية البديعة، دون أن تحمل منها بعض الذكريات.

وها نحن أولاءِ.. في السوق.

تختار لي رفيقتي مقهىً مريحاً على ضفة النهر..

وتغيبُ هي في الحوانيت الأنيقة، القريبة، تتفرج، وتختار ما يطيب لها من أشياء. وما تلبث بعد ساعة أن تعود وفي يدها كيسٌ يغص بالأشياء الجميلة التي اختارتها.

ونجلس معاً على فنجان قهوة نستعرض ما اختارته مما أبدعت الأيدي الفنانة العاملة في المجر.

وأتذكر القول العربي الشهير:

لابُدَّ مما ليس منه بُدُّ..

* *

لم أتحدث إلى الآن عن أي نشاط ثقافي، أو ملتقى إبداعي، في عاصمة لِسْت..

إنه موسم الصيف..

والحركة الثقافية كلها تتوقف عادةً في هذا الموسم.

كلٌّ يريد أن يرتاح قليلاً..

أن ينعم بإجازة مثلنا..

هذا ما افترضناه نحن على الأقل..

ولذلك أرحنا أنفسنا من هذا الهم.

وتركنا سوانا يرتاح..

ولو بحثنا عن بعض هذا النشاط لوجدناه بالتأكيد.

ولكني كنت أعود إلى فندقي،

بعد عناء نهار كامل،

وآوي إلى فراشي على الفور. فمعذرة من كل المبدعين والمبدعات في وردة

أوروبا الساحرة.

*   *

وإلى لقاءٍ في مواسمَ أخرى..
أيتها العزيزة بودابشت.

صيف ٢٠٠٢

رحلة إلى لِيلْ

النجمة المتعددة الأشَّعة

ما نكاد نستقرُّ أنا وهي في مكان
حتى تغزو رأسَنا فكرةُ السَّفَر.
قديماً قال شاعرنا: «اغتَرِبْ تَتَجدَّد»
الكلمةُ لأبي تمام.. هذا الفكرُ الشاعر
الذي اخترقَ عصره، كما قلتُ عنه ذاتَ مرة،
لِمَ لا أَروي له بيتيهِ الحكيمين كاملَيْن.
أعرفُ أن محبّي الشعر والفكر يحفظون البيتين.

وطولُ مُقامِ المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ
لِديباجتَيْهِ..
فاغتَرِبْ تتجدَّدِ

فإني رأيتُ الشمسَ زيدَتْ مَحَبةً
إلى الناسِ..
أَنْ ليسَتْ عليهم بِسَرْمَدِ

رفيقةُ الدرب تعملُ في الجامعة..
لابدَّ أن يكونَ السفر إذاً في العطلة..
ولا سيَّما عطلة الصيف.
ونأخذ في التفكير برحلة الصيف الجديدة
بعد أن نحسب جيداً ما يمكنُ أن يكونَ وَفْرُنا

من النقود لمثل هذه «المغامرة».
أين سنشدُّ رحالنا هذه المرة؟
وبطريق المصادفة البحتة..
تأخذ هي مجلةً فرنسية انتهت إلى يدها
لا أدري كيف؟
وتقرأ هذا العنوانَ الكبير:
مدينة «لِيل» في شمالي فرنسا
عاصمةٌ للثقافة الأوروبية كلها هذا العام.

شيء رائع..
اخترنا الرحلة إِذاً..
يا لَلمصادفَةِ الحلوة!
صنعاء ـ التي نقيم فيها ـ عاصمةُ الثقافة
العربية هذا العام.
وأشهد أننا ما نزالُ هنا
في أعراس متصلة للشعر، والفكر،والفن
منذ بدأت صنعاء عامها الثقافي.
ولكن.. لا بأس أن تتنوعَ أضاميم الورد التي
تملأ أيدينا.
سنقضي إِجازتنا هذا الصيفَ في لِيلْ..
المدينة الهادئة الجميلة التي اختارت موقعها
في الشمال
بعيداً عن الضوضاء..
ومنها، من هذه «النجمة المتعددة الأشعة»
نستطيع أن نزور شماليَّ أوروبا كلها دون

كبيير عناء.

في لِيلْ طبيب شاب من الأسرة

كان قد ألحَّ علينا غير مَرةٍ أن نزوره.

سنزوره إذاً هذه المرة..

وسيكون خير معينٍ لنا في كل شيء.

أمتعتنا قليلة.. نحزمها بسرعة في دمشق

وننطلق إلى «الزَّمرُّدةِ الخضراء»

التي استقرَّ فيها طبيبنا الشاب إبراهيم منذ أعوام.

من مطار (أورلي) في باريس نتجه ـ أنا وهي ـ فوراً إلى لِيلْ في سيارة صغيرة كان طبيبنا الشاب قد أعدَّها لنا.

لا نريد أن ندخل باريس..

ولا نُسْلم أنفسنا لحظةً لضجيجها، وروائعها المرهِقة.

سنترك هذه المرة «الروائع» المرهِقة كلها وراءنا،

ونشير إليها من بعيد بإيماءة إعجابٍ وتقدير.

* *

في الطريق.. كتبتُ قصيدة صغيرة..

أهديتها إلى لِيلْ قبل أن أزورها.

ترجمتها رفيقتي إلى الفرنسية..

ونشرتها أنا فيما بعد في إحدى مجموعاتي الشعرية.

الفرنسيون يهتمون بالشعر، ولا سيَّما الشعر

الذي يُقال فيهم. ولكني ما أظن أحداً اهتمَّ
بقصيدتي الصغيرة، وأشهد أنها لم تَخْلُ من
حياة ونبض. فليس كل ما قاله شعراء فرنسا
روائع خالدة.

* *

نحن في بيت طبيبنا الشاب..
اختاره بذكاء وذوق على أطراف المدينة
في شارع يتنفَّسُ خُضْرةً وشجراً.
نُلقي أمتعتنا القليلة في البيت..
تأخذ رفيقتي كعادتها بيدي
ونخرجُ على الفور نطوفُ في لِيلْ.
يعجبني الهدوء..
الضجيج الذي يأكل الأعصاب
مرضُ حضارتنا الحديثة الأوَّل.
لابُدَّ مما ليس منه بُدّ.
أختارُ مقهىً صغيراً في زاوية ساحة كبيرة.
في زاوية المقهى الصغير نجلس معاً..
نتأمل المارة ونحن نرشف فنجان قهوتنا.

* *

لِيلْ هذه.. أشبه بنجمة متعددة الأشعة.
أجملُ ما فيها أنك قادرٌ على أن تختار
كل يوم شعاعاً من هذه الأشعة، تتسرب
في طريقه، وتُمضي نهاراً ممتعاً في مدينة
قريبة، أو بلد مجاور.

وهكذا كان..

فقد اخترنا منذ اليوم أن نمتطي متن شعاع
أخضر، وأن نُمضي سحابةَ نهارنا في
مدينة مجاورة أو بلد قريب.
لندن نفسها ـ عاصمة إنكلترا ـ كانت
من أهدافنا القريبة، وقد بدأنا «برنامجنا»
الجميل بها.

* *

في السابعة من صباح اليوم التالي..
كنا في سيارة صغيرة ـ أنا وهي ـ في
طريقنا إلى لندن.
سنذهب صباحاً، ونعود عند الغروب.
لندن على مرمى حجر من لِيلْ..
هكذا قال لنا السائق الفرنسي اللطيف
الذي كان يقود سيارتنا.
لم أكن قد زرتُ هذه العاصمة
ـ مالئة الدنيا وشاغلة الناس ـ من قبل،
بالرغم من أنني قرأت عنها ما يملأ مجلدات.
(قصة مدينتين) وحدها لديكنز يمكن
أن تكون واحداً من هذه المجلدات.
رفيقة الدرب تعرفها جيداً..
فقد قضت فيها فترةً من قبل.

كان «الحَدَث» الذي يشغلني في هذه الزيارة
أننا سنجتاز «النَّفَق» الذي يعبر بنا
إلى بلد شكسبير تحت «المانش»،

هذا المُنْجَز الأوروبي العظيم
الذي قرأت عَشَرات المقالات، وسمعتُ
مئات الأخبار عن بنائه قبل أن يَتم.

وما هي إلا ساعة وبعض الساعة حتى كنا
على مدخل النفَق العظيم في سيارتنا الصغيرة.
ننتظر العبور.
كانت لحظةً رائعة.. عندما وجدتُني ورفيقتي
نهبط بسيارتنا تحت البحر، في ممرٍّ تسطع
فيه الكهرباء، ويلفُّه الظلام الدامس خارج
زجاج النافذة.
وفي نصف ساعة.. كان ضوء النهار يستقبلنا
فجأةً، ونخرج إلى الشاطئ الآخر، ونكون في
أرض شكسبير..
لو أنَّ الروائي العظيم عاصَر هذا الحدث
لكَتَب مسرحية رائعةً عنه أضافها إلى
مسرحياته المعروفة. أنا واثق من ذلك، وربما
جعل عنوانها:
نصف ساعة تحت الحاجز المائي الأزَلي بيننا
وبين أوروبا.

* *

ها نحن أولاءِ في لندن..
سائقنا الفرنسي يعرفها جيداً.
مهنتُه أن يقود السائحين مثلنا إليها.
سيوجزها لنا في ساعتين أو ثلاث،

ما أَحَبَّ هذا إليَّ!

لا أَحبُّ الوقوفَ عند التفاصيل.

يُريحني أن أرى الأشياءَ لَمْحاً.. وأمضي.

ومن يدري؟ ربما كان ذلكَ أجدى وأمتع.

رفيقتي لا تختلف عني.. إلا في زيارتها للمتاحف.

إنها تؤثر أن تتأملَ الروائعَ، وتقفَ عندها أكثر مني.

أذكرُ أنني اختصرتُ (اللوفر) كله في نصف ساعة، أو أكثر قليلاً،

وجلستُ في مقهى صغير، أرشف قهوتي، وأتأمل المارَّة،

بينما كانت هي ما تزال تتأمل (الجوكوندا) الشهيرة في الغرفة الخاصة بها، في أعماق المتحف التاريخي، وقد غلّفوها بزجاج لا يخترقه الرصاص.

وتمضي السيارةُ الصغيرة بنا من شارعٍ إلى شارع.

ما أظن لندن ـ عاصمة المطر والضباب ـ كما يسمونها،

نَعِمَتْ منذ أمد بعيد بيوم صحوٍ أجملَ من ذلك اليوم الذي أتحفنا به الحظ في هذه الزيارة.

الناس ينتشرون على الأرصفة، وفي الحدائق، ويملؤون الساحاتِ في كل مكان، بأجسامٍ نصفِ عارية،

يريـدون أن يغمـروا أجسـادهم بأشـعة الشـمس
الدافئـة، ويَنْعمـوا بهـذه الفرصـة الثمينـة أقصـى
ما يستطيعون.
نحـن، أبنـاء الشـمس، التـي تَلْفَحنـا مـن الصـباحِ
إلـى المسـاء، معظَـم أيـام السـنة، لا نسـتطيع أن
نـدركَ أبـداً سـعادةَ هـؤلاءِ النـاس عنـدما تسـخو
عليهم السماء بيوم صـحوٍ كهذا، وتنثرُ كل هذه
الكنوزِ الذهبية على أجسادهم،

لِنَـدَعْهُم يملـؤون الأرصـفةَ والسـاحاتِ إذاً،
ولْنُواصل جولتنـا فـي «عاصـمة الضـباب» التـي
استحالت هذا اليوم إلـى عاصـمةٍ لكنـوز الشمس
الذهبية الرائعة.
بالمناسـبة.. أذكـر أن أحـد أصـدقائي بعـث إلـيَّ
يومـاً برسـالة مـن لنـدن ـ وكـان يعمـل هنـاك ـ
يلعنُ فيها الضباب الذي لا يكاد يتـرك لـه فرصـة
ليرى الشمس.
وقد أجبته «بموشح أندلسيٍّ صغير»(١٤)
ما أزال أذكر مطلعه:
تَصْرُخُ الشمسُ، تُغَنِّي عندنَا
تُنْبِتُ اللونَ.. غَنِيّاً عَطِرَا
ووَرِثْناها.. فأمواجُ السَّنَا
في دِمَانا.. نَهْرَ زهوٍ أحْمَرا

وتنطلق بنا سيارتُنا الصغيرة، تجوبُ شوارع لندن، في ذلك الصحوِ الرائع، نتوقفُ

(١٤) انظر: شعر سليمان العيسى، المجموعة الكاملة، المجلد الثاني ص ٤٥٠ (طبع دار الشورى، بيروت).

لحظةً عند كل مَعْلَم من مَعالمها التاريخية. أذكرُ أني طلبتُ إلى السائق أن يقفَ بي عند مَعْلَمين فقط أكثرَ من لحظة. كان الأوَّل ساعة (بغ بِنْ) التي ما برحت تملأُ سمعي بدقَّاتها المَهيبة منذُ مطلع الشباب، وقفتُ على الرصيف أتأملُها. كانت ترتفعُ على عمود سامق، تلمع في ضوء الشمس، وتضحكُ رفيقتي. أومأتُ لها أني سألتقيها في أول نشرة أخبار استمع إليها من الـ: BBC ومضيت.

أمَّا المَعْلَم الثاني الذي أخذ مني أكثر من سواه، ولم تضحك رفيقةُ الدرب من وقوفي عنده، فهو تمثال «نلسون»، الذي انتصبَ في الجو، على رأس عمود شاهق يتحدَّى الفضاء، في ساحة «الطَّرَف الأغَرّ» - مُسِخَت العبارة في الإنكليزية إلى «طَرَفِلْغَارْ» - نِلْسون.. هذا الضابط البريطاني الشجاع الذي راح يطارد نابليون في مياه الأبيض المتوسط حتى بلغا معاً شواطئنا في مصر العربية، واشتبكا في معركة بحرية فازَ فيها، بعد أن كانَ ضحيتَها.

كنا في الواقع نحن الضحية لكلا المتحاربَيْن الطامعَيْنِ بنا، وبما حولنا من العالم.

تُعجبني قصةُ الحب التي أَخذت الشطر الأجملَ والأعمقَ - في رأيي - من حياة هذا الضابط الشجاع.

لِنَدَعْهُ على قمة عموده الشاهق في الفضاء، ولْنواصِلْ جولتنا في شوارع عاصمة الصحو والشمس الذهبية في هذا النهار.

لقد بدأت رفيقةُ الدرب تجوع. ولم أكن أقلَّ جوعاً منها. فَلْنَبحث عن مطعم بعيد عن الضوضاء، وَلْنَجلسْ فيه، نتناول غداءنا مع سائقنا الفرنسي الظريف.

وعلى كتفِ حديقة (الهايْد باركْ) الشهيرة التي تُحبها رفيقتي، أَغوانا مطعم صغير بالدخول إليه، والاستمتاع بغداءٍ سريع من (السمك والبطاطا) لا أمتعَ ولا أشهى.

كانت الساعةُ قد تجاوزت الرابعة قليلاً بعد الظهر، فأخذنا نُعِدُّ أنفسَنا للعودة، ولكن بعد جولة سريعة أيضاً في أرجاء عاصمة شكسبير، وملتون، وبَيرون، وشلّي، وكيتسْ، وكولوريدج، ووُرِدِذْوُرثْ، وما لا أَستطيع إِحصاءه من شوامخ الفكر والفن والأدب في هذا الحديث العَجْلان.

الشمس تنحدرُ إلى المغيب..

وداعاً لندن!

لنا فيكِ أصدقاء كُثْرٌ لم نستطِعْ رؤيةَ أحدٍ منهم، لأن زيارةً خاطفةً كهذه لا تَتَّسع لمثل هذه الأشياء، فإلى زيارة أخرى.. ومعذرةً منكِ ومنهم جميعاً.

* *

نصلُ البيت.. والمساءُ الناعم النديُّ يمدُّ رواقَه على«زُمُرُّدتِنا الخضراء».. على لِيلْ.

يستقبلُنا طبيبنا الشاب إبراهيم بوجهه المشرِق كعادته، يبادرنا قائلاً:

تخفَّفْتُ اليوم مبكراً من عملي في المستشفى، وجئتُ لأِصحبكم في زيارة إلى ليل

القديمة. هناك أشياء قريبة منا، ربما يروقكم أن تروها. ويمضي بنا.. دون أن ينتظر منا جواباً، فالوقتُ ما يزالُ مبكّراً على النوم. ورحلةُ لندن ليست مُرهِقةً - في رأيه - لكي تجعلَنا نعتذرُ عن ساعة وبعضِ الساعة، نقضيها في مُنْعَطَفات ليل القديمة، ونرى ما لا نراه في أحيائها الحديثة.

سنعرّج في طريقنا - يقول الدكتور إبراهيم لخالته - فهو ابن شقيقة رفيقتي، سنعرّج على صديق لنا يُدير مطعماً صغيراً. الصديق سوريٌّ من حلب، ولن تجدوا ألَذَّ ولا أمتعَ من الشطائر التي سيقدمها لنا غيرَ شمائله الحلوة وروحه المَرِحة.

ونمرُّ في طريقنا على الصديق المَرِح الكريم، فيرحّب بنا، ويُبدي استعداده لاصطحابنا كل يوم إلى مكانٍ نختارُهُ، - أو يختاره لنا - خارجَ ليلْ.

وقد أوفى الصديقُ الشاب بوعده فعلاً.. كان يختارُ لنا كل يوم نزهةً في بلدة مجاورة.. ويُطمئننا أنه في إجازة من العمل هذه الفترة.. فلا بأسَ أن يكون «دليلَنا السياحي» وقائدَ رحلتنا كل صباح، في سيارته الخاصة، إلى مدينة صغيرة في فرنسا أو في بلجيكا، لا تبعد كثيراً عن مقر إقامتنا.

- الدكتور إبراهيم غارق في العمل بمستشفاه..

دعوه لعيادته وبحوثه..

وهيّا بنا نمضي معاً «إجازتنا» الجميلة.

ومَنْ لي برفاق مثلكم للنزهة يا شاعرنا الكبير؟

هكذا كان صديقنا الشاب (ميرزا) يخاطبنا وهو يفتح باب سيَّارته لِيُقِلَّنا فيها.. وننطلق معه إلى حيثُ تقودنا رغبتُنا كلَّ نهار.

* *

لم نشهد في ليل، عاصمة الثقافة لأوروبا هذا العام، لم نشهد فيها بصراحة أيَّ نشاطٍ ثقافي يُذكر حتى الآن.

أتُرانا كنا نجهل ما يدورُ حولنا؟

أَم أن الأمورَ كانت للصحافة والإعلانِ فحسبُ.

- هل رأيتم شيئاً من «بيوت الإبداع» حتى الآن؟

يسألنا طبيبُنا الشاب.. ونجيبه..

بأنَّا ما زلنا في الواقع نجهلُ ما تخبِّئُه هذه المدينةُ من أشياءَ جديرةٍ بأَن تُرى.

لقد شاهدنا حتى الآن «الأُعجوبةَ الطريفةَ» التي رأينا صورتَها في المجلة الفرنسية: الشجر الأخضر المتدلّي إلى أسفلَ.. كيفَ «زُرِعَ» في الجو، وارتفعت أغصانُه كلُّها ولكن.. باتّجاهِ الأرض.

ذلك شيء يدخلُ في صميم السريالية والشعر الحديث.

تُرى.. هل علِمَ بهذا صديقنا سلفادور دالي؟

وجعلنا ذلك النهار لزيارة «بيوت الإبداع».

لا أريد أن أطيلَ الحديثَ عنها، وإن كانت جديرةً بحديث طويل.

إنها معارضُ رائعة لكل أَلوان الجمال الذي تمتلكُه الطبيعة وتمتلكُه عبقريةُ الإنسان.

وها أنذا أبادر فأعتذر عن انطباعي السابق الذي لم يكن منصفاً ولا صحيحاً عن نشاط ليل الثقافي. لقد كانت المدينة التي شددنا الرحالَ إليها تزخر بألوان الثقافة،

تَلُفُّنا من كل جانب،

ولم نكن- حينَ يمَّمناها - مخطئين.

نحنُ الآن في الساحة الكبيرة التي تتوسطُ المدينة..

الساحة التي كانت تَغصُّ بالناس..

جاؤوها من كل حَدَبٍ وصوب

يتفرَّجون على «منزِلٍ صيني»

و«حديقة للحيوانات»

أجل.. «حديقةٍ للحيوانات» أُنشئت في قاطرة..

مشهدَان رائعان.. كانا يتوسطان الساحة.

أليس في هذا طفرةٌ من طَفَرات الخيال؟

في ركن هادئ قريب.. كان هناك مطعم صغير، أغوانا رصيفه أن نأخذ مكاننا عليه أنا ورفيقتي، ونتناول شيئاً من الطعام ونحن نستعرض المارةَ أمامَنا.. همسَ في أُذني رجلٌ كان يجاورنا، بعد حديثٍ وديٍّ قصير دار بيننا:

أنتم زائرون لهذا البلد!

هل رأيتم متحف شارل ديغول؟

سألت رفيقتي: وهل لديغول متحفٌ هنا؟

أجابنا جارنا اللطيف:

نعم، يا سيدتي. شارل ديغول وُلد في هذه المدينة، وهذا إحدى مفاخرها، وقد تحوَّلَ البيتُ الذي وُلد فيه إلى متحف صغير، غير بعيد عن هذا المكان الذي نجلس فيه، ولا ضَيْرَ أن تروه في رأيي.

قلت: لابدَّ أن نراه.

وما كدنا نَفْرُغ من تناول الشطائر التي في أيدينا حتى نهضنا، أنا وهي، نريد البيت الذي وُلد فيه مُحرِّر فرنسا من النازيَّة، الرجل الذي بدأ عصراً جديداً في تاريخ بلده شارل ديغول..

وزرنا المتحفَ الصغير..

بيتٌ عادي، يتألف من دوريْن.. تتوسطه حديقةٌ صغيرة.. طفنا فيه بسرعة، ثم دُعينا لمشاهدة شريطٍ مسجَّل، عن حياة هذا الرجل الذي حرَّر فرنسا من الاحتلال النازي، وأصبحَ ضميرَ الشعبِ الفرنسي ردحاً من الزمن.

ولا نَنْسَ أن الرجلَ كان مقتنعاً بأن الاحتلالَ واحد.
كانَ في فرنسا.. أو في الجزائر..
وأنه أسهمَ، ولو من بعيد، في إعطاءِ أرضِ المليونِ شهيد حقَّها في الحرية والاستقلال.

* *

هل أَترك الحديث عن لِيلْ قبل أن أمرَّ «بقصر الفنون الجميلة» الذي تزدانُ به هذه المدينة. إنه واحد من أجمل قصور الفن التي شاهدناها حتى الآن، ومن أغناها بكنوز الجمال والإبداع.
وما أشكُّ أن رفيقة العمر كانت ستعتُبُ عليَّ أشدَّ العَتْبِ لو لم نعرِّج على هذه «الآية الفنية»، وأذكره في حديثي عنِ المدينة، فقد كانت متعتها بزيارته فائقة.

* *

كادت زيارة ليلْ.. الزُّمرُّدة الخضراء.. تنتهي. ويبدأ الفصلُ الممتع الجديد في هذه الرحلة.. مُمتع.. وجديد لي ولرفيقتي على الأقل.. الفصل الممتعُ الجديد، خاتمةُ الرحلة، كان في الأيام الثلاثة الأخيرة.. التي خَصَّصْناها منذُ البدء لزيارة بروكسل. بروكسل.. العاصمةُ التي كنتُ أحلمُ بزيارتها منذ أمدٍ بعيد.. لا لأنها أجملُ عواصم الدنيا، ولكن.. لأنها كانت البلد الذي عاشت فيه رفيقةُ الدرب أعواماً أربعة، هي أعوامُ الدراسة التي قضتها طالبةً في جامعة بروكسل، في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين.

* *

فتاةٌ.. في السابعةَ عشرةَ من العمر.. في وهج صِبَاها الأول.. تُغامر.. فتترك بلَدَها القديم، وأُسرتَها المحافِظة، وتذهب في بعثةٍ للدراسة في أوروبا، تختارها بنفسها، وتُصرُّ عليها.. دون أن يدري أهلها بشيءٍ أَوَّلَ الأمر.. وكانت جامعة بروكسل الحرة من نصيبها في هذه البعثة، مع فتاتين أُخْريَين من رفيقاتها لم تكونا أقلَّ منها حماسةً للانطلاق والتجديد. ماذا يمكن أن أسمي هذه المغامرة؟
لعل أصدق تعريف لها أن أسميها: شرارة الطموح.
لقد حدثتني طويلاً عنها بعد أن هيأ لنا القَدَر لقاءَ العمر.
وهل كنتُ أنا بعيداً عن هذه الشرارة؟
لقد كلَّفتني الكثير.. وعانيتُ منها ما عانيت منذ كنتُ في قافلة التشرد الأُولى مقتَلَعاً من ملاعب طفولتي.. من بلدي الصغير.. شمالي سورية. ما كدنا نستقر في فندقنا الأليف، في شارع وسط العاصمة. حتى سألتها: هذه مدينتكِ.. وأنتِ أدرى بها. فأين تريدين أن نتوجه الآن؟
أجابت: لعل من الأنسب أن نقوم بجولة في البلد، نتعرفُ فيها معالم المدينة التي كبِرت، وتضخمتْ كثيراً حتى ما أكاد أعرفها..
وفي دقائق معدودة.. كنا ننضَمُّ إلى قافلة من السيَّاح في الفندق كانت تستعد لهذه الجولة. وراحت رفيقتي السمراء تلتهمُ الشوارعَ بنظراتِها.

وتدلُّني علي ما كان باقياً في ذاكرتها منها.. لَشَدَّ ما تغيَّرت الدنيا! همست في أُذني.
ولكنْ.. أنظُرْ! هذا هو الشارع الطويل، شارع «لويز».
شارعنا القديم الذي يؤدي إلى الجامعة..
كانت عيناها تبرقان بالفرح.. وهي تقول هذه الكلمات.
وهذا هو «الترام» الذي كنا نهبط فيه إلى السوق كل يوم تقريباً، إنه ما يزالُ كما تركته قبل نيّفٍ وخمسين عاماً، لم يتغيَّر فيه إلا لونه الأزرق الذي كان رمادياً في أيامنا، حتى رقمه القديم ٩٤ ما يزال هُوَ هو.. ما أجمل كلَّ هذا!

قلت لها: دعينا نترك جولة البلد وراءنا، ونصعد هذا «الترام»، صديقكِ القديم، رقم ٩٤، وننطلق به إلى الجامعة. تعرفين أني لم آتِ هذه العاصمة لكي أتفرج فيها على مقر حلف الأطلسي.

قالت ضاحكةً: سنفعل ذلك في أقرب فرصة. لا تتعجَّلْ! أَمامنا مُتَّسع من الوقت لكل ما يخطر ببالك. إنني لستُ أقلَّ شوقاً إلى رؤية «أَطلالي» القديمة التي لم يجعل منها الزمن «نُؤْياً وأَحجاراً» كأطلالِ شاعرنا النابغة الذبياني الذي قال:

عُوجُــوا فحيُّــوا لِــنُعْمٍ دِمْنَــةَ الــدارِ
مــاذا تُحَيُّــون مــن نُــؤْيٍ وأحجــارِ؟[١٥]

أنا واثقة أنها أَصبحت أَكثر بهاءً وعُمراناً مما كانت في عهدنا بكثير..
قلت: هذا صحيح.. ولكنَّ أطلالنا القديمة تظَلُّ هي الأَحلى والأَغلى.. أَليس كذلك؟
ووافقت رفيقتي بهَزَّةٍ من رأَسها..
ثم واصلنا جولتنا الخاطفة في المدينة.

كنتُ شارداً في الشارع الطويل الذي يؤدي إلى الجامعة، شارع «لويز»، وأنا على يقين أنها كانت شاردةً فيه مثلي.

ما الذي يربطني بالشارع، بالجامعة، بكل هذه الأشياء؟ لا أدري، حسبي أنها كانت يوماً هنا.

لم آبَهْ لشيء من معالم العاصمة الجميلة ـ لابد أَن اعترف بجمالها ـ لم يبق في ذاكرتي من هذه الجولة إلا «حصان دونكيشوت» وفارسُه الشهير الذي كان يتوسط ساحةً من ساحات العاصمة مررنا بها في سرعة.

أنا مُعجَب منذ طفولتي بهذا «الفارس» الذي صارع طواحين الهواء. ما أكثر فرساننا الذين يصارعون طواحينَ الهواء مثله!

---

(١٥) الدمنة: ما تلبَّدَ من آثار الدار بعد رحيل أهلها، والنؤيُ خندق صغير كانوا يحفرونه حول الخيام، يقيها السيل والمطر.

لقد قرأته أولَ ما قرأته بالفرنسية في طبعة رائعة، وفي سن مبكرة وما يزال عالقاً في ذهني. فلا عجَبَ أن يعلقَ بالذاكرة الآن دون سواه.

انتهت جولتنا بسرعة، وما كدنا نصل الفندق حتى قلت لرفيقتي:

ما يزالُ الوقتُ مبكراً على الغداء. ما رأيكِ بزيارة خاطفة لجامعتك؟

قالت بشيء من الحماسة: لا مانع لديَّ، وربما تغدَّينا هناك، في غابة (لاكامبر) الساحرة التي تجاور الجامعة. فما أكثر المقاهي والمطاعم المغربية هناك!

وفي لحظات.. كنا على الرصيف الذي يمرُّ بإزائه «الترامُ» الصديق، ذو الرقم ٩٤.

وصعدنا «الترام» الصديق وانطلق بنا إلى الجنوب.

الجامعة تقع جنوبَ العاصمة.. كما أخبرتني تلميذتُها القديمة، رفيقةُ الدرب.

في «الترام» تَعرَّفْنا صَبيَّةً أليفة، أَلقت علينا بعض الأسئلة، ولم تلبث أن أصبحت «دليلتنا» السياحية، بعد أن رأتنا تائهين قليلاً عن هدفنا.

كانت رائعةً هذه الصبيَّةُ (جوليا) التي قادتنا إلى الجامعة، دون أن نضلَّ الطريق الذي تغيَّرت معالُمه.

قالت لنا: إنها كانت طالبةً هنا قبل عام فقط.

ثم رأت أن تنتقل إلى فرع آخر، في جامعة أخرى.

ولكنها ما زالت تعرف كل شيء في هذا المكان.

قلت لرفيقتي: يهمني أن أعرفَ القاعة التي كنتِ تدرسين فيها، والمهجع الداخلي الذي كنتِ تنامين فيه.

وضحكت قائلةً: أنا مثلك أريد هذا. وما أظننا سنبلغ ما نريد بسهولة. فقد قام أكثر من خمسين بناءً جديداً بيني وبين قاعتي الدراسية، ومهجعي الداخلي. ولكن لابد أن نبلُغَهما. دعنا نواصل بحثنا بين هذه الأبنية مع دليلتنا الصبيَّة جوليا.

* *

في حياتنا رَغَبات كثيرة
تُلحُّ علينا دون أن نجد لها تفسيراً
أو نعرفَ لها سبباً.
ورغبتنا اليوم ـ رغبتي أنا على الأقل ـ ربما كانت واحدةً منها.
رفيقتي تحب أن تقف على (أطلالها) القديمة.. شيء طبيعي.
ولكنْ ما صلتي أنا بهذه (الأطلال)؟ ولِمَ أُلحُّ أن أقفَ عليها؟
هل هو الحبُّ الذي يريد أن يملكَ حياةَ من يُحب كاملةً دون فَجَوات؟
ربما كان ذلك. ولكنه سيكون حباً مشوباً بالأنانية إذا كان كذلك.

دعنا نسميه هكذا. ولكنْ من قال إنَّ الأنانية هنا ليست سوى الحب عينِه بأعمق وأوسع معانيه.

* *

سأَدعُ الفلسفةَ جانباً..
وأواصل البحث معها عن قاعة المحاضرات التي كانت ترتادها.
والمهجع الداخلي الذي كانت تقيم فيه مع زميلتها البلجيكية التي حدثتني عنها غير مرة: (ديديه).
طفنا بين الأبنية الجديدة حتى كلَّت أقدامنا..
وأخيراً.. لاح لنا تمثال في رقعة صغيرة خضراء، آخر المطاف.
وهتفت رفيقة الدرب: هذا هو تمثال مؤسس الجامعة، سان فوراغن.
لقد كان أمامنا وما يزال. وهذا هو القسم الداخلي الذي كنا نسكنه.
وندنو منه بسرعة لنجد سيماءَ القِدَم باديةً عليه، وقد حوَّلوه إلى قاعة للمحاضرات. أنظر يا سليمان! قالت لي مشيرةً بيدها:
ذلك هو موقع الغرفة التي كانت مأواي، أنا وزميلتي البلجيكية، على امتداد أربعة أعوام أدرسُ التربية وعلم النفس.. لَشَدَّ ما عبثت بها الأيام!
وقفنا لحظات نتأمل موقع الغرفة والبناءَ صامتَيْن..
ثم خرجنا، دون أن نمر بغرفة المحاضرات القديمة، نبحث عن مطعم قريب في الغابة المجاورة، غابة (لاكامبر)، ملعب الصبا، ومرتع الذكريات التي أريد أن أعرف كل شيء عنها، ولم أعرف كل شيء. كانت مرافقتنا الصبيَّة (جوليا) ما تزال معنا.. تتأملنا، ونحن ننبش الماضي، وهي شديدة الإعجاب بهذا الإصرار والحنين إليه.
وقد سرَّنا أن تكون معنا في وجبة الغداء الشهيّ الذي تناولناه على أطراف الغابة الرائعة، وكان الجوعُ قد بلغَ بنا غايته.

* *

سَليني وقد أوْفَى على السَّفَرِ الركبُ
أعامٌ مضَى يا دار.. أم حُلُمٌ عَذْبُ؟

كانت رفيقتي تردّد هذا البيت ونحن في طريق العودة إلى الفندق.
سألتُها مازحاً: ما الذي ذكَّركِ بهذا البيت؟
هذا مطلع قصيدة ودَّعتُ بها دار المعلمين العالية في بغداد، الدار التي تلقيت فيها دراستي الجامعية، وتخرجت فيها قريباً من فترة تخرُّجك هنا.
قالت: أعرف ذلك، وأعرفُ قصةَ البيت الذي أصبح شعارَ (داركَ) بعد تخرُّجكَ بأعوام عديدة.
هل تعرفُ أن هذا البيت يَصْلُح أن يكون وداعاً لعهد دراستي هنا أيضاً؟ إنه مشحون بالحنين إلى تلك الفترة من الصِّبا التي يمرُّ بها كلُّ من يدرس في جامعة.
قلت: ربما كان هذا سرَّ حِفْظِكِ للبيت، والتماعه في ذهنك بعد كل هذه الأعوام.
أنا في زيارة لجامعتكِ الآن، فهل تذكرين زيارتكِ (لجامعتي) في بغداد؟ كانت الدار

التي ضمتني طالباً في بعثةٍ مثلكِ.
هي الجامعة في ذلك العهد.
قالت: أذكر جيداً تلك الزيارة قبل نَيِّفٍ وعشرين عاماً. كنا معاً أيضاً، وقد اصطحبتَني إلى معهدك العالي وأطلعتَني على كل شيء هناك.. حتى (مشاويرك) على ضفة النهر الخالد دجلة، في شارع أَبي نُوَاس ما زالت حيةً في الذاكرة.

ما أروعَ ضفةَ النهر الخالد، وما أَجملَ أماسيَّ بغداد، في شارع أبي نُوَاس! أَلاَ تَرى معي أنَّ شاعرنا القديم عليَّ بن الجَهْم قد أوجزها في هذا البيت الناعم الخالد:

عيونُ المَهَا بينَ الرُّصَافةِ والجِسْرِ
جَلَبْنَ الهوى من حيثُ أدري ولا أَدْري

قلتُ: يحزُّ في النفس أن تكونَ بغدادُ الرائعة، الكريمة، الوفيَّة تحت الاحتلال الآن.

أَجابت في صوت خفيض: غُمَّةٌ.. وتَمْضي. ليست أولَ مأساةٍ نمرُّ بها، ثم نجتازها.

كنا قد وصلنا الفندق.. حين قطعنا حديثَنا عن دار المعلمين العالية وعن بغداد التي مرت في بالنا معاً مرورَ البرق الخاطف.

في اليوم التالي من زيارتنا لمدينة الصبا والذكريات، قالت لي رفيقة الدرب: لك اليوم عندي مفاجأة. وقبل أن اسأل عن المفاجأة بكلمة أكملت: سأصحبكَ اليوم إلى حفلة رائعة من حفلات الموسيقا الكلاسيكية. أنت شاعر، وما زلت تقول لي:
إن الشعر والموسيقا يَنْبُعان من صخرة واحدة. ستكون الحفلة في إحدى القاعات الفخمة. بعد ظهر اليوم. لم تكن تفوتني حفلة موسيقية في أيام دراستي. كانت تذاكر الدخول إلى مثل هذه الأماكن تُعطى للطلاب بثمن زهيد. أمَّا أنا فقد كان لديَّ اشتراك دائم. وهكذا استطعت أن أكون من روَّادِ الموسيقا الدائمين. سَقْياً لتلكَ الأيام الخصبة الجميلة! لقد أَرست بناءَنا الثقافي الجديد، وفتحت أَمامنا أبواب الحياة.
قلت: أنا موافق بلا تردُّد على «مشروعكِ» الذي اهتديتِ إليه اليوم. حفل موسيقي في إحدى القاعات الفخمة، في هذه العاصمة الأوروبية الراقية. من الذي يستطيع أن يرفضَ ذلك؟
قالت: للسيَّاح هنا ميزات كثيرة. وإدارة الفندق قادرة على تأمين بطاقتين لنا على الفور.

في الوقت المحدَّد للحفل..
كنا نحتلُّ مقعدنا في القاعة الفخمة، التي تقام فيها أروعُ الحفلات الموسيقية، على مَدار العام..
وتَخْفُت الأنوارُ فجأةً..

ويسودُ القاعةَ الفخمةَ سكونٌ يحبِسُ الأنفاس.
ثم ترتفعُ الستارة عن عَشَرات العازفين والعازفات
ويدخلُ «قائدُ الأوركسترا»..
لتشتعلَ القاعةُ بالتصفيق..
ثم يعودُ السكونُ الذي يحبسُ الأنفاسَ يُخيِّم على كل شيء.
ويَبدأ العَزْف...
وتتوالى القِطَعُ الموسيقية الساحرة.
تنسابُ على الأوتار..
من موزار، إلى بيتهوفن، إلى شوبان،
إلى باخ، إلى هايدن..
إلى ما لا أذكر الآن.
وتنتهي الفترةُ الأُولى..
لنكونَ بعدها في استراحة قصيرة
نعود بعدها إلى تسابيح الأرض التي تصلنا بالسماء.
لقد استمعتُ إلى هذه القِطَع الموسيقية - قلتُ لرفيقتي - عَشَرات المرات.. استمعتُ إليها بعضها أو كلها.. مسجلةً على الأسطوانات أو في الأشرطة، ولكني لم أجد ربع المتعة التي وجدتها وأنا أُنصت إليها، وأراها بعينيَّ، تُعزَف أَمامي في هذه القاعة. سيظلُّ الفرقُ كبيراً، والبونُ شاسعاً، بين ما يضجُّ بالحركة والحياة أمامكَ وبين ما تتلقاه سجيناً في أسطوانة أو شريط. كانت مناسبةً لا تُنْسَى..
قلتُ لرفيقة الدرب، ونحن نغادر القاعةَ الفخمة، ستكون هذه واحدةً من أَمتع الذكريات في شريط هذه الرحلة..

* *

في اليوم الثالث..
هَيَّأنا أنفسنا للسفر..
قررنا العودةَ من بروكسل إلى مطار (أورلي) في باريس مباشرةً.
ومن ثَمَّ.. نأخذ طريقنا إلى دمشق..
لقد وقفنا على (الأطلال).. وحققنا ما نريده في هذه المدينة الجميلة.
ولا نطمع بأكثر من ذلك..
كان الطريقُ إلى مطار (أورلي) ينسابُ مفروشاً بالخُضْرة والشجر.. من كلا جانبَيْه.
الخُضرة والشجر.. يُحيطان بك حيثما كنتَ في أوروبا.
يغنّيان لك أحلى أغاني الطبيعة في صمت..
حتى لَتمَلُّ الجمالَ الأخضرَ أحياناً..
وهو يمتدُّ أمامكَ، ويلفُّك من كل جانب.
في سيارتنا الصغيرة كنا، أنا ورفيقة الدرب، نُسْلِم أنفسنا للصمت، ولهذا الجمال

الأخضر الذي ينسابُ حولنا ونحن نختزنُ في أعماقنا ما لا يُحصى من اللحظات الحلوة..

في هذه الرحلة الرائعة: رحلة لِيْل.

* *

وداعاً لِيْل.. وداعاً بروكسل!

إلى لقاء.. من يدري؟ ربما لم تَجُدْ به الأيام.

آب: ٢٠٠٥

فيلادلفيا في البال

ذكرى زيارة للمدينة التاريخية
في الولايات المتحدة الأمريكية

هناكَ مُدنٌ تستقبلُكَ بفتور..
وأنتَ تضَعُ قدميكَ على بابها لتدخلَ..
ومُدنٌ لا تشعُر بوجودك حين تدخُل
ومدنٌ.. تُحس أنها تفتَح ذراعيْها لك
وتستقبلك.. وهي صامتة.
ومدنٌ.. تحتضنك عندما تخطو أولى خُطَواتكَ
فيها، وتغمرُكَ بالقُبَل..

كانت فيلادلفيا، مدينةُ التاريخ في أمريكا،
- إذا ما تحدثنا عن تاريخ أمريكا الذي لا
يضرب في القدم أكثر من نَيِّفٍ ومئتي عام -
كانت هذه المدينة البيضاء، عاصمة بنسلفانيا
الفاتنة، تستقبلنا وهي صامتة..
ولكنها جعلتنا نشعرُ - منذ الخطوات الأولى -
أن كل ما فيها يُرحِّب بنا بلغةٍ شاعرة،
وليستِ اللغةُ الشاعرة غريبةً عليها،
فقد أحسستُ منذَ اجتزتُ أَولى شوارعها
أن فيلادلفيا نفسَها قصيدةٌ مترامية الآفاق.
تملؤكَ طَرباً ومتعةً كلما أوغلتَ في قراءتِها،
أعني.. في شوارعها الجميلة.

لقد طفتُ مدناً عديدةً في هذه البلاد التي يكادُ العمرانُ فيها يتصل حيثما اتَّجهتَ، ولكني أعترفُ أني لم أشعر بهذه الألفة، قل الصداقة الحميمة التي أحاطتني بها هذه «القصيدةُ» البيضاء منذ دخولها. إنها المرةُ الأولى التي أزورها. رفيقتي كانت أكثر قرباً منها، وأشدَّ سروراً بلقائها، فقد زارتها قبل خمسة وعشرين عاماً مع وفد كبير من رؤساء الجامعات وكبار الأساتذة جاؤوا في رحلة إطّلاع وتَعرُّف على جامعات أمريكا
كما أخبرتني.

رفيقتي راحت منذ اللحظات الأولى تسأل عن مكان الجامعة التي زارتها في فيلادلفيا، وأمضت فيها يوماً كاملاً حافلاً بالمتعة، يوماً لا يُنْسَى كما ردَّدت أمامي.

لم نُضع كثيراً من وقتنا في البحث عن الجامعة فقد كان هدفنا الأول متحف الفنون الجميلة، المتحف التاريخي الذي جئنا المدينة من أجله. أما أنا فقد رحت ألتمس من أمل، الصبيَّة الحسناء التي كانت تقود سيارتنا، أن تطوف بنا في أرجاء المدينة التي كانت تفاجئنا كل لحظة بجمالها، الجمال الذي يجمع بين التاريخ والحداثة، بشكل لا مثيل له. هذا بناء رائع من القرن الثامن عشر أو التاسع عشر - لا أدري -، وإلى جواره

تشـهق ناطحـةُ سـحاب بيضـاء تسـطع فـي أشـعة الشـمس، مـا أظنهـا إلا حديثـة العهـد فـي البنـاء. أمـا الـذي يأخـذ بلُبـي ويأسـرني أنـا فهـو النهـر الـذي يختـرق مدينـةً مـا.. إنـه يختـرق إحساسـي كله، ويبقى عالقاً به مهما غيَّبه الزمن.

بغداد التي يخترقها دجلة

القاهرة التي يخترقها النيل

بودابست التي يخترقها الدانوب

أنطاكية، مدينتي التي يخترقها نهر العاصي،

وإن يكن أصغر قامة وحجماً من زملائه.

مدن تلمع كلها في الذاكرة وتربطني بها

ذكريات ربما كانت أثمن ما في كتاب أسفاري.

وهذه فيلادلفيا.. تستقبلني بنهرها الهادئ

الفاتن الذي يخترقها أيضاً،

نهر الديلاوير.

يا للمشهد الرائع!

دعنا نمر على الجسر الذي يومئ إلينا على

قيد خُطَوات

ولنَدعِ النهر الجميل ينساب تحتنا هادئاً ناعماً

كما تنساب أنغام موشح أندلسي على أوتار

زرياب.

وتصب المدينةُ سحرها بعينيك

وأنت شارد بين العراقة والحداثة كما ذكرت

ونخشى أن تتعب أمل صبيتنا الحسناء

التي كانت تقود سيارتنا..

فنشير إليها قائلين: إلى المتحف!
لا نريد أن نضيع الوقت..
فنحن هنا سحابة نهارنا فقط
ولابد أن نعود مع الأصيل.. إلى نيوجرسي
إلى بيتها الكريم الذي يضيفنا..
وتصدع قائدة رحلتنا الصبية للأمر،
وتمضي بنا إلى آية فيلادلفيا الأولى
إلى «بيت قصيدها» الساحر..
إلى متحف الفنون الجميلة.
لستُ شديدَ الولع بالمتاحف، كما ذكرتُ غير مرة.
أؤثر أن أمرَّ بها مرور الطائر على غابة.
لا لأنني قليل الاهتمام بروائع ما جادت به عبقرية الإنسان، ولكني أضيق بالوقوف عند الدقائق والتفاصيل مهما كانت مغرية.
لا بأس.. سأمضي مع الركب الذي يرافقني إلى المتحف، والركب المرافق ثلاثة أشخاص ليس إلا، رفيقتي التي تذلل كل متاعب السفر لي، بل وتحبِّبها إلي، وصديقتنا العزيزة أم عمر التي يصعب أن تراها غير ضاحكة، ومهلِّلة لكل شيء، وقائدة رحلتنا الحسناء، ومُضيفتنا في الوقت ذاته الصبيَّة أمل.
قصرُ الفنون الجميلة ـ كما يسمونه ـ يتربَّع هضبةً لعلها أعلى مكانٍ في المدينة.
الفنُّ سموٌّ.. فلماذا لا يكون مكانُه سامياً؟

نسمةُ ارتياح تداعبني ونحن نصعد الهَضَبة؟
ونبحث عن مدخل القصر الرئيسي.
ونحطَ أمام المدخل الرئيسي الفخم..
ونترجَّل من سيارتنا لندخل..
لابدَّ من «عربة صغيرة» أستعينُ بها على التجوال
أنا الذي كنت أمرقُ كالسهم حين أمشي
أصبحتُ الآن عاجزاً عن الحركة أكثر من خُطَوات معدودة.
إنه الزمن.. الذي يُغير على شعلة الجسد
فيجعلها تهمد رويداً رويداً..
ومن حسن الطالع أنه يظلُّ أحياناً عاجزاً عن اقتحام شعلة الروح.
لقد أدرك هذا جدنا المتنبي، شاعر التحدي الأول، حين قال:

وفي الجِسْمِ نَفْسٌ لا تَشيبُ بشَيْبِهِ
ولو أنَّ ما في الوجهِ مِنهُ حِرَابُ

يُغَيِّرُ مني الدهرُ ما شاءَ غيرَها
وأبْلُغُ أقْصَى العمرِ وَهْيَ كَعَابُ

أحمدُ القَدَرَ الذي ما زالَ يحفَظَ لي قَلَمي،
وحَنْجَرتي، وقُدرتي على كتابة قصيدة.
سأرحّب بالعرَبَة الصغيرة إذاً..
ألقي نفسي فيها، وتدفعها بي رفيقةُ الدرب
التي ما زالت تدفعني إلى الضوء، واقتحام

الحياة.

- ما دمنا قادرين على الحركة لابدَّ لنا أن نتحرك.

- ما دمنا قادرين على التفكير لابدَّ أن نفكر

- ما دمنا نستطيع القراءة لابدَّ أن نقرأ.

- ما دمنا نستطيع الكتابة لابدَّ أن نكتب.

- ما دمنا قادرين على المتعة لابدَّ أن نستمتع.

- الفراغ وحده هو الذي يجعل حياتنا بلا معنى.

تلك كانت بعض الحكم التي تؤمن بها وترددها باستمرار.

وأشهد أني قد أفدت منها ومن حِكَمِها، الكثير.. وإن لم أكن بعيداً عنها في صميم تكويني وطبيعتي.

قلت هذا في الماضي، وسأقوله ما حييتُ، تاركاً لغيري أن يعيش «حماقاته» كما يشاء.

* *

وندخل المتحف..

قصر الفنون الجميلة..

بناء فخمٌ ضخم، يتألف من ثلاثة أدوار يسود أبهاءه وحجراته سكون مَهيب. رغم الحركة وكثرة الزائرين.

ويَلْفتُ نظري المقهى الجميل الذي يتوسط الممرَّ في الدور الأول.

سيكون مكان جلوسي واستراحتي عند أول فرصة أتعب فيها من استعراض القصر وما يحتويه وهكذا كان..

فما كاد صُحبتي يفرغون من جولتهم في الدور الأول.

حتى رحت أُعلن عن رغبتي الشديدة في العودة إلى «الكافتريا» الأنيقة والخلود إلى الراحة.

وَلْيفعلوا بعد ذلك ما يشاؤون، أو بالأصح: يَفْعَلْنَ ما يشأْن، فلم يكن صُحبتي غير ثلاثِ سيدات، كنَّ - في الحقيقة - أكثر الناس احتفاءً بي وحرصاً على راحتي.

ولابد أن أذكر في لمحة عجلى ما شاهدنا في الدور الأول.

لقد جعلوه معرضاً لكل ما يتعلق بالفنون والأدوات الأمريكية.

وتطوُّرها منذ نشأة البلد حتى الآن:
الرسم، النحت، الأثاث، المقاعد، المرايا، الخَزَف.. الخ.
ومن الممتع أن تشهد أمامك كيف تطورت وسائل الحياة وفنونها منذ أكثر من قرنين من الزمان حتى الآن.
الذي لاحظته أن التطور كان سريعاً إلى أقصى حد.
وفي لحظة من اللحظات تذكرت الكاتب الإنكليزي الكبير (إدمون كينغ) الذي عرض في كتابه الشهير (مدارسنا ومدارسهم) نمط الحياة وتطور التربية في عدد من البلدان، كان يضع تحت عنوان كل موضوع من موضوعات الكتاب عبارة جميلة تكاد تلخص حياة البلد، وعندما جاء إلى أمريكا اختار هذه العبارة الذكية التي توجز الحياة الأمريكية في رأيي: «شَعْبٌ على عَجَلات».
ومما لحظت أيضاً في الرسم - على الأخص - وأرجو ألا أكون مخطئاً فيما لحظت، أنَّ اللوحة الفنية في أمريكا تظل تلميذةً للوحة الفنية في أوروبا، بالغةً ما بلغتْ من الجودة والإتقان.

* *

فنجان قهوتي يكاد ينتهي
وصحبتي تحثني على زيارة الدور الثاني
وربما كان أغنى أدوار القصر بالروائع
إنه الدور الخاص بأوروبا وفنها العظيم
فإلى الدور الثاني، ممتطياً عَرَبتي الصغيرة
تدفعني هذه المرة الصديقة العزيزة أم عمر.

* *

من القرن الرابع عشر إلى القرن العشرين.. تجد أوروبا تنساب أمامكَ من غرفة إلى أخرى بفنها التشكيلي، وتماثيلها، وإبداعها الذي تتمثل فيه كل المدارس من الكلاسيكية إلى الانطباعية إلى الرمزية إلى التكعيبية... كل فناني أوروبا الكبار تركوا شيئاً من عبقريتهم هنا..
وتحار أين تقف؟ وماذا تشاهد؟
الفن المستلهم من الدين يكاد يحتل القرون الأولى كلها.
لوحات لا نهاية لها تستقي موضوعاتها من الإنجيل والتوراة.
ومرة أخرى أريد أن أسجل تعليقاً على هذا الفن الذي أوحاه الدين في القرون الوسطى حتى بداية العصر الحديث.
إن مئات اللوحات والتماثيل التي استقاها أصحابها من الكتب والقصص الدينية ليست سوى انعكاس لطبيعة مبدعيها ومرآةً لمشاعرهم وأحاسيسهم قبل أن تكون صورةً للرموز المقدسة التي رسموها.
كلٌّ رأى السيد المسيح على هواه..

وكلُّ صوَّر البراءة والطهارة والتضحية كما أحسَّها هو وتخيَّلها.
وهكذا تعددت الصور وتنوَّعت للرمز الواحد والموضوع الواحد.
إنه مجرد انطباع خرجت به بعد زيارتي للدور الثاني من قصر الفنون الجميلة الذي كان هدفنا الأول من الزيارة كما ذكرت قبل قليل.

*　　*

أمل قائدة الرحلة تدعونا إلى تناول الغداء فقد بدأنا نجوع.
لقد اكتشفت مطعماً رائعاً في الدور الأول من المتحف نفسه.
وكنت أول من لبَّى الدعوة، فقد أخذ الطواف من قاعة إلى قاعة يُتعبني.. ولابد من فترة استجمام نعود فيها إلى أنفسنا.
ولكن رفيقتي تصر على أن نلتقط كلنا صورةً في هذه الشرفة الساحرة التي تطل على أجمل شوارع المدينة وأحلى ساحاتها. ونصدع لرغبتها، ونلتقط الصورة البهيجة.. وإلى المطعم الأنيق.. إلى الغداء.
مرة أخرى أمتطي عربتي الصغيرة بعد الغداء ونصعد معاً إلى الدور الثالث، وما زلت أعجب من نفسي كيف استطعت أن أقضي كل هذا الوقت في زيارة متحف. إنها المرة الأولى التي أصبر على مثل هذا العبء - ولا سيما في ظروف صحية كالتي أنا فيها - وأرجو ألا تكون الأخيرة.
في الدور الثالث جاء دورنا نحن.. دور عبقرية آسيا وإبداعها. كل الأساطير.. كل القصص الديني.. كل الرموز.
كلُّ الأصول الثقافية العريقة نبعت من الشرق، من عندنا..
بدءاً من ألف ليلة وليلة في بغداد.
إلى كونفوشيوس وبوذا في الهند والصين وكوريا واليابان..
وما تضم آسيا العريقة من شعوب وحضارات كلها كانت ترتسم على جدران تلك الغرف البالغة الأناقة والجمال.
الحق أني لم أشعر أني أتجول في بيتي إلا عندما رحت أسعى بين هذه الصالات الأسطورية.
صحيح أن هناك الصين واليابان وكوريا.. ولكن الروح العربية الإسلامية كانت تتجلى بكل هيبتها وجلالها في تلك الكتابات المدهشة التي تنتثر هنا وهناك.
نسخة من القرآن الكريم، بخط النسخ الفخم، كانت تتوسط إحدى الصالات، لا تدري من أين جاءت، ومن الذي خطها وأبدعها، وغير بعيد منها تطالعك شاهنامة الفردوسي وغيرها من الذخائر.
دعني أقف قليلاً عند هذه الدروع الثمينة وآلات الحرب.
هناك درع رائع لفارس عربي بالتأكيد، ؟؟ لم يذكروا ذلك، وتثب إلى ذهني وأنا أشاهده، قصة البيت البديع الذي نظم شطره الأول المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية، حين

وقف على ضفة النهر، بالقرب من صبايا يغسلن ثيابهن هناك، وكان النسيم العليل يداعب صفحة النهر فقال:

نَســـجَ الـــريح علــــى المـــاء زَرَدْ

فأجابته صبية على النهر، مُجيزةً الشطر الثاني على الفور:

يَـــا لَـــهُ دِرْعَـــاً مَنِيعـــاً لَـــو جَمَـــدْ!

ومن يدْري؟ فربما كان هذا الدرع الذي أراه أمامي الآن هو الدرع الذي أبدعه خيال الرُّميكية، الصبية التي أصبحت زوجة الملك الشاعر، ملك إشبيلية فيما بعد.

*   *

الزيارة تقترب من نهايتها..
وصورةُ الرميكية التي نسجت درعاً
متيناً من الماء والريح، تُداعبني.
وأعود إلى السيَّارة التي تُقلنا
وأنا أختم رحلة اليوم بهذه الكلمات:
وداعاً.. يا بْنة الهدوء الآسر
في بلد الضجيج القاتل!
وداعاً.. أيتها الزنبقة البيضاء
التي تحمل أوراقها
نصف تاريخ أمريكا!
ودَاعاً فيلادلفيا..
التي محوتِ من نفسي
نصف آثام هذه البلاد!

آب ٢٠٠٥

سليمان العيسى في سطور

- ولد الشاعر سليمان العيسى عام ١٩٢١م، في قرية النُّعيرية - حارة بساتين العاصي - الواقعة غربي مدينة أنطاكية التاريخية على بعد عشرين كيلو متراً.
- تلقى ثقافته الأولى على يد أبيه المرحوم الشيخ أحمد العيسى في القرية، وتحت شجرة التوت التي تظلل باحة الدار، حفظ القرآن، والمعلقات، وديوان المتنبي، وآلاف الأبيات من الشعر العربي ،ولم يكن في القرية مدرسة غير (الكُتَّاب) الذي كان في الواقع بيت الشاعر الصغير، والذي كان والده الشيخ أحمد يسكنه، ويعلِّم فيه.
- بدأ كتابة الشعر في التاسعة أو العاشرة. كتب أول ديوان من شعره في القرية، تحدث فيه عن هموم الفلاحين في القرية وبؤسهم.
- دخل المدرسة الابتدائية في «مدينة أنطاكية» - وضعه المدير في الصف الرابع مباشرة - وكانت ثورة اللواء العربية قد اشتعلت عندما أحس عرب اللواء بمؤامرة فصله عن الوطن الأم سورية.
- شارك بقصائده القومية في المظاهرات والنضال القومي الذي خاضه أبناء اللواء ضد الاغتصاب وهو في الصف الخامس، والسادس الابتدائي.
- غادر لواء الاسكندرونة بعد سلخه ليتابع مع رفاقه الكفاح ضد الانتداب الفرنسي، وواصل دراسته الثانوية في ثانويات حماه واللاذقية ودمشق. وفي هذه الفترة ذاق مرارة التشرد وعرف قيمة الكفاح في سبيل الأمة العربية ووحدتها وحريتها.
- دخل السجن أكثر من مرة بسبب قصائده ومواقفه القومية.
- شارك في تأسيس البعث منذ البدايات وهو طالب في ثانوية جودة الهاشمي بدمشق - كانت «التجهيز الأولى» في ذلك العهد - في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين.
- أتم تحصيله العالي في دار المعلمين العالية ببغداد، بمساعدة من العراق الشقيق.
- عاد من بغداد وعين مدرساً للغة والأدب العربي في ثانويات حلب.
- بقي في حلب من سنة ١٩٤٧-١٩٦٧م، يدرِّس ويتابع الكتابة والنضال القومي.
- انتقل إلى دمشق موجهاً أول للغة العربية في وزارة التربية.
- كان من مؤسسي "اتحاد الكتاب العرب" في سورية عام ١٩٦٩م.
- متزوج من الدكتورة ملكة أبيض، وله ثلاثة أولاد: معن، وغيلان، وبادية [معن طبيب جراح، غيلان مهندس طيار مدني، بادية طبيبة باثولوجيا].

- يحسن الفرنسية والانكليزية إلى جانب لغته العربية، ويلم بالتركية.
- زار معظم أقطار الوطن العربي وعدداً من البلدان الأجنبية.
- اتجه إلى كتابة شعر الأطفال بعد نكسة حزيران عام ١٩٦٧م.
- شارك مع زوجته الدكتورة ملكة أبيض في ترجمة عدد من الآثار الأدبية، أهمها آثار الكتاب الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية.
- شارك مع زوجته وعدد من زملائه في ترجمة قصص ومسرحيات من روائع الأدب العالمي للأطفال.
- في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢ حصل على جائزة «لوتس» للشعر من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا.
- وفي عام ١٩٩٠م انتُخب عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق.
- في عام ٢٠٠٠م حصل على جائزة الإبداع الشعري، مؤسسة البابطين.

أ- أهم أعمال الشاعر:

١- الأعمال الشعرية (في أربعة أجزاء) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت. الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
٢- على طريق العمر: معالم سيرة ذاتية. عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر أيضاً، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
٣- الثمالات (بأجزائها الثلاثة)، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١م.
٤- الكتابة بقاء، مؤسسة الإبداع، صنعاء، ٢٠٠٢م.
٥- ثمالات ٤، وزارة الثقافة، صنعاء،٢٠٠٤م.
٦- الديوان الضاحك (جزءان): وزارة الثقافة، صنعاء ٢٠٠٤م.
٧- وأكتب (قصائد صغيرة لي ولها)، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
٨- كتاب الحنين، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م.
٩- ثمالات ٥، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٦م.
١٠- باقة نثر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٣م.
١١- همسات ريشة متعَبة ـ دار الحافظ، دمشق،٢٠٠٧م.
١٢- رحلة كفاح (بالاشتراك مع د. ملكة أبيض)، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٧م.

ب- مجموعات شعرية مستقلة:

١- حب وبطولة (مختارات)، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.
٢- موجز ديوان المتنبي، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٠م.
٣- ديوان الجزائر، وزارة الثقافة ـ الجزائر، ١٩٩٥م.
٤- ديوان فلسطين، دار فلسطين، دمشق، ١٩٩٦م.
٥- المرأة في شعري، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٨م.

٦- ديوان اليمن، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
٧- ديوان عدن، جامعة عدن، ٢٠٠٤م.
٨- ديوان صنعاء، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
٩- دمشق حكاية الأزل، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.
١٠- من رحلة الظمأ، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٤م.
١١- أنا و حلب، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤م.
١٢- أنا وساحلنا العربي السوري، وزارة الثقافة ـ دمشق، ٢٠٠٦م.
١٣- ديوان لبنان، وزارة الثقافة ـ دمشق، ٢٠٠٦م.
١٤- أنا ومصر العربية، تحت الطبع. (في مصر).
١٥- أنا وجزيرتنا العربية، الرياض، ٢٠٠٧.
١٦- كتاب اللواء، تحت الطبع، (في صنعاء).
١٧- ديوان العراق، تحت الطبع، (في صنعاء).
١٨- دمك الطريق (عمر المختار)، طرابلس ـ ليبيا، ٢٠٠٧م.
١٩- أنا والقدس، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩.
٢٠- الديوان الضاحك موجزاً، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

جـ- أهم الأعمال للأطفال:

الشعر

١- ديوان الأطفال، دار الفكر، دمشق ١٩٩٩م.
٢- فرح للأطفال، دار الحافظ، دمشق، ٢٠٠٦م.
٣- مسرحيات غنائية للأطفال، دار الشورى ـ بيروت، ١٩٨٠م.
٤- الشيخ والقمر (مسرحية)، دار طلاس ـ دمشق، ١٩٨٧م.
٥- قصائد للأطفال، مكتبة لبنان ـ بيروت، ١٩٨١م.
٦- أغاني النهار، مكتبة لبنان ـ بيروت، ١٩٨٦م.
٧- أغاني المساء، مكتبة لبنان ـ بيروت، ١٩٨٦م.
٨- كتاب الأناشيد (جزءان)، يضم الجزء الأول ٢٠٠ نشيد ملحن، مع نوطاتها الموسيقية، بالاشتراك مع كامل القدسي (قُرابة نصف أناشيده لسليمان العيسى).
ويضم الجزء الثاني اللوحات الغنائية والموشحات مع نوطاتها الموسيقية، وزارة التربية ـ دمشق.
٩- كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة ـ دمشق ٢٠٠٥م (بالعربية والفرنسية).
١٠- أغاني الحكايات، أبو ظبي، ٢٠٠١.
١١- أحكي لكم طفولتي يا صغار، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٣م (بالعربية والإنجليزية).
١٢- ما زالوا الواحة، اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق، ١٩٨٥م.

١٣- أحكي لكم طفولتي يا صغار، اتحاد الكتاب، الجزائر، بالعربية والفرنسية، ٢٠٠١م.
١٤- حدائق الكلمات، دار الحدائق، بيروت، ٢٠٠٩.
١٥- أراجيح تغني للأطفال، دبي، ٢٠٠٩.

النثر

١- شعراؤنا يقدمون أنفسهم للأطفال، دار الآداب - بيروت، ١٩٧٨م.
٢- وائل يبحث عن وطنه الكبير، قصة نثرية نشرت في «أوراق من حياتي»، بالعربية والفرنسية، وزارة الثقافة - دمشق، ٢٠٠٣م.
٣- قصص نثرية من التراث: لبيكِ أيتها المرأة، الحَدَث الحمراء، ابن الحمراء، دار الآداب، بيروت.
٤- قصص مزيج من الشعر والنثر: الفرسان الثلاثة، وضاح وليلى في وطن الجدود، سِرْب البجع الأبيض، دار الأهالي - دمشق.
٤- قصتان من ألف ليلة وليلة، علي بابا والأربعون لصاً، وعلاء الدين والفانوس السحري، مكتبة لبنان - بيروت.

القصص المعرّبة

١- قصص بهيجة (٢٧ جزءاً) دار طلاس - دمشق (بالاشتراك مع بهيج البدين).
٢- كل يوم حكاية (٢٨ جزءاً)، دار طلاس - دمشق، بالاشتراك مع صلاح مقداد.
٣- لكل حكاية لعبة (١٠٠ قصة قصيرة)، دار طلاس - دمشق، ١٩٩٤م، بالاشتراك مع صلاح مقداد.
٤- شجرة ندى (مجموعة قصص قصيرة)، دار الفكر - دمشق، ١٩٩٤م، بالاشتراك مع صلاح مقداد.
٥- أحلى الحكايات (١٠ قصص)، دار يمان - عمَّان، بالاشتراك مع د. ملكة أبيض.
٦- سلاسل عديدة هي:
الحديقة المعلقة، قصص يحبها الجميع، يُحكى أنَّ، حكايات الجني المرح، حكايات السلحفاة، حكايات ملوّنة، روائع من القارات الخمس، مسرحيات عالمية للأطفال؛ دار الفكر - دمشق، بالاشتراك مع الدكتورة ملكة أبيض زوجة الشاعر.

د- ما ترجم له:

١- الفراشة وقصائد أخرى: نقلتها إلى الإنجليزية الشاعرة برندا ووكر، دار طلاس، دمشق ١٩٨٤م.
٢- رائحة الأرض: نقله إلى الفرنسية الشاعر اتاناز فانشيف دو تراسي، دار طلاس،

دمشق ١٩٨٧م.
٣- الشجرة: ديوان شعر للأطفال، ترجم إلى الروسية وصدر في موسكو ١٩٨٤م.
٤- أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقله إلى الإنجليزية عبد الله كامل، وصلاح مقداد، صدر عن دار الحكمة في لندن ١٩٩٢م.
٥- أحكي لكم طفولتي يا صغار: نقلته إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض، طبع في الجزائر ـ العاصمة ـ ٢٠٠١م.
٦- قصائد مختارة: نقلتها إلى الفرنسية الدكتورة ملكة أبيض بالتعاون مع مبروك مبارك، وزارة الثقافة، صنعاء ٢٠٠٤م.
٧- اليمن في شعري، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٣م.
٨- أوراق من حياتي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٣م.
٩- كلمات خضر للأطفال، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٥م، نقلته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.
١٠- قصائد حب، وزارة الثقافة، صنعاء، ٢٠٠٦م، نقلته إلى الفرنسية د. ملكة أبيض.

هـ- أهم ما كتب عنه:

١- مجموعة من الكتاب، مع سليمان العيسى، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٤م.
٢- الجرادي، إبراهيم (تحرير وتقديم)، المقالح، عبد العزيز (إشراف عام)، دار الرائي، دمشق، ٢٠٠٦.
٣- أبيض، ملكة، وقفات مع سليمان العيسى، الهيئة العامة للكتاب، صنعاء، ٢٠٠١م.
٤- كالابريزي، آن ماريا، رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة نابولي ـ إيطاليا، ١٩٩٥م.
٥- الأرناؤوط، عبد اللطيف، الشاعر سليمان العيسى، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٤م.
٦- أبيض، ملكة، سليمان العيسى في لمحات، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٩م.

المحتويات

الصفحة

مُدُن.. وأَسْفار ٥
خيوط.. من الذكرى ٥٩
عجائبُ الدنيا السبع ٧٧
مُثَلَّجة.. وغارة ٨٥
ساعة مع المحيط ٩١
صباح في جنة العريف ٩٦
الأمطارُ البيضاء ١٠٠
أين اختبأَتْ؟ ١٠٢
بيـــاض ١٠٤
ثَلْج.. ثلج.. ثلج ١٠٥
مدينة الثلج ١٠٦
جارتي العملاقة ١٠٧
في بودابست ١٠٩
رحلة إلى لِيلْ ١٢٦
فيلادلفيا في البال ١٥٤
سليمان العيسى في سطور ١٦٧

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة